# . عوامل التأثير فى الأدب الجاهلى

# . الحياة الاجتماعية والأخلاقية

# . المعارف الثقافية

الأستاذ الدكتور
**عبد الجواد المحص**
الأستاذ المساعد بالكلية
قسم الأدب والنقد

﴿ ٦٤٥ ﴾

# عوامل التأثير فى الأدب الجاهلى

أ.د/ عبد الجواد المحص

لا يمكن لدارس الأدب الجاهلى أن يقدم صورة واضحة المعالم بارزة القسمات لحال هذا الأدب إلا بدراسة العوامل التى أثرت فى هذا الأدب، وكانت لها انعكاساتها القوية على نفوس مبدعيه.

وهذه العوامل كثيرة، ولكن أبرزها - فيما أرى - يتمثل فى:

١- حياة العرب السياسية.

٢- حياتهم الاجتماعية والأخلاقية.

٣- حياتهم الاقتصادية وبخاصة أسواقهم.

٤- علومهم ومعارفهم الثقافية.

٥- معتقداتهم الدينية.

٦- معتقداتهم وأوهامهم الخرافية.

٧-حروبهم وأيامهم العسكرية.

وفيما يلى حديث مفصل عن جملة مختارة من هذه العوامل البارزة وأصدائها فى الحياة الأدبية الجاهلية.

**أولاً: حياة العرب السياسية:**

كان العرب من حيث حياتهم السياسية قسمين:

١- قسم لهم مسحة سياسية، وهؤلاء كانوا يعيشون فى اليمن جنوبى شبه الجزيرة العربية، وفى إمارتى: المناذرة والغساسنة على أطرافها، وفى إمارة كنده شرقى نجد. ويمكن أن نعتبر «مكة» و«يثرب» من هذا القبيل، لأن نظاما سياسياً كان ينتظم كليهما.

أما اليمن فيجمع المؤرخون على أنها عرفت نظام (الملكية)، وقامت فيها دول مختلفة مثل دولة معين ودولة سبأ ودولة حمير، وكان لهذه الدول حضارات ومدنيات بسبب ما حظيت به من الخصب الطبيعى وموارد الرزق الواسعة واعتدال المناخ. ومن أشهر الملوك فى هذه البقعة من شبه الجزيرة العربية : سيف بن ذى يزن، وبلقيس صاحبة العرش العظيم التى قص القرآن الكريم قصتها مع الهدهد وسليمان فى سورة النمل.

وأما إمارة المناذرة، فكانت على الحدود الشمالية الشرقية للجزيرة، وكانت مدينة «الحيرة» هى عاصمتها، وقد أنشأها الفرس جنوبى دولتهم لتحمى حدود امبراطوريتهم من غارات القبائل العربية، ولذلك خضعت للنفوذ الفارسى، وتكفلت بصد الغارات القبلية، وهجمات الروم وأحلافهم من الغساسنة عرب الشام. وكان ملوكها يدعون (المناذرة) لأن أغلبهم يسمى باسم (المنذر) وهم بطن من قحطان. ومن أشهر ملوكهم: النعمان الأعور صاحب قصرى (الخورنق والسدير)، والمنذر بن ماء السماء الذى قاد حروبا طاحنة ضد الغساسنة والرومان تحقق له النصر فى أغلبها. واشتهر بين العرب بأنه كان له يومان: يوم نعيم ويوم بؤس، فكان أول من يطلع عليه فى اليوم الأول يعطيه مائة من الابل، وأول من يطلع عليه فى اليوم الثانى يقتله، وممن قتله فى هذا اليوم المشئوم عبيد بن الأبرص، ويقولون: إنه راجع نفسه فأقلع عن هذه العادة السيئة، ويقال أيضاً: إنه قتل وهو سكران نديمين له، فلما صحا من سكره وعرف ما قدمت يداه ندم وأمر ببناء صومعتين عليهما، وهما الغريان اللذان يذكران فى أشعار العرب.

وللمنذر بن ماء السماء ابن ينسب إلى أمه لشهرتها بين نساء العرب هو عمر بن هند الذى خلف أباه فى الحكم وكان طاغية مستبداً وفيه يقول

الشاعر:

أبـى القلـب أن يهـوى السـدير وأهلـه
وإن قيـل عيـش بالسـدير غريـر
بـه البـق والحمـى وأسـد خفيـة
وعمـرو بـن هنـد يعتـدى ويجـور

والعرب يلقبونه بالمحرق لأنه نذر أن يقتل مائة رجل مـن تميم حرقا وبربنذره فى يوم أوارة باليمامة، ولعنفـه وجبروتـه هجاه كثير من الشعراء، ولقى حتفه على يدى عمرو بن كلثوم الذى قتله ليثأر للاهانة التى تعرضت لها والدته من هند أم عمرو. ولأنه كان شاعراً رعى الشعراء، وأجزل لهم العطاء وأصبحت الحيرة فى عهده مركزاً أدبياً مزدهراً.

ومن الملوك الذين جاءوا بعده وأشبهوه فى رعايتهم للشعر والشعراء النعمان الثالث ابن المنذر الرابع المكنى بأبى قابوس، وقصده كثير من الشعراء يشيدون بفضله من أمثال أوس بن حجر والمنخل اليشكرى ولبيد بن ربيعة والمثقب العبدى وحجر بن خالد الذى يمدحه بقوله:

سمعت بفعل الفاعلين فلم أجد كمثل أبى قابوس حزما ونائلا

وهو الذى تغنى بمدحه النابغة الذبيانى، وحدثت بينهما جفوة عندما وفد النابغة على الغساسنة ومدحهم، وضاق النابغة بغضب أبى قابوس عليه، وأخذ يعتذر إليه بكثير من قصائده التى يصور فيها ما يعانيه من متاعب وآلام ومنها بائيته المشهورة التى يقول منها:

أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى وتلك التى أهتم منها وأنصب
فبت كأن العائدات فرشن لى هراسابه يعلى فراشى ويقشب
فلا تأخذنى بالوعيد كأننى إلى الناس مطلى به القار أجرب

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ومن اعتذارياته داليته التى يقول فيها:

نبئت أن أبا قابوس أوعدنى ولا قرار على زأر من الأسد

وحدث أن قتل النعمان بجبروته عدى بن زيد، فضاق به كسرى الثانى ملك الفرس واستدرجه إلى حاضرته بالمدائن، وألقاه فى غيابة السجن ثم قتله ويقال: إنه رمى به تحت أرجل الفيلة فمزقته إربا، وثارت قبيلة بكر على ملك الفرس حزنا على النعمان وصممت على الثأر فهزمت الفرس شر هزيمة فى معركة «يوم ذى قار».

والحق أن المناذرة عرفوا من تقاليد الملك أكثر مما عرف الغساسنة وكانوا أوسع منهم سلطانا إذ دانت لهم بالطاعة اليمامة والبحرين وعمان وقبائل العراق وعلى رأسها بكر وتغلب وكذلك كثير من قبائل نجد وخاصة بعد انحلال مملكة كندة وكثيراً ما استعطف شعراء القبائل المناذرة حتى لا تغزوهم جيوشهم.

ويذكر المؤرخون أن المناذرة كانوا أكثر رخاء من الغساسنة بفضل حياتهم الزراعية. ويرجع هذا الرخاء أيضاً إلى أن عاصمتهم (الحيرة) كانت مركزاً هاماً للتجارة بسبب موقعها الجغرافى المتميز فى طريق القوافل.

وأما إمارة الغساسنة التى قامت على الحدود الشمالية الغربية لشبه الجزيرة العربية والتى كانت خاضعة للحكم البيزنطى فقد كان لها أكثر من عاصمة، وأشهر عواصمها: بصرى وغسان. وقد أنشأها الروم جنوبى دولتهم درعا من غارات الأعراب.

وينسب الغساسنة إلى أصل يمنى، فهم من عرب الجنوب الذين نزحوا إلى الشمال، وقد أقاموا إمارتهم فى شرقى الأردن، ولأنهم بدو رحل لم يتخذوا لهم حاضرة بعينها، فتارة تكون حاضرتهم الجولان أو الجابية وتارة تكون جلولاء أو جلق بالقرب من دمشق وتارة تكون بصرى وتارة تكون غسان.

ويقال: إنهم أول نزولهم بالشام اصطدموا بعرب يسمون الضجاعمة، تغلبوا عليهم، وأصبحوا سادة تلك المنطقة التى حلوا فيها، وقربهم الرومان منهم ومنحوهم ألقابا رسمية من ألقابهم.

وجفنة بن عمرو هو مؤسس سلالة الغساسنة، ولذلك يسمون آل جفنة وأول ملك من ملوكهم يقال: إنه جبلة والد الحارث بن أبى شمر، الذى أنعم عليه الإمبراطور جستنيان امبراطور الروم بالاكليل، واعترف له بالسيادة المطلقة على العرب فى الشام ومنحه لقب شيخ القبائل ولقب البطريق وهو أعظم لقب فى الدولة البيزنطية بعد لقب الملك.

والحارث هذا هو الذى اشتبك مع المنذر بن ماء السماء فى حروب طاحنة وقع ابنه فى إحداها أسيراً، فقدمه المنذر ضحية للعُزَّى، وثأر الحارث لنفسه فقتل المنذر فى يوم حليمة الذى يضرب به المثل المشهور عند العرب القدامى «ما يوم حليمة بسر».

وخلفه ابنه المنذر ولكن نشب خلاف بينه وبين البيزنطيين، فقلبوا له ظهر المجن، وقبضوا عليه ونفوه إلى صقلية، ومنذ ذلك الحين تمزقت وحدة الغساسنة وتجزأت إمارتهم أجزاء وأصبح على كل جزء أمير كبير أو صغير، وأشهر هؤلاء الأمراء الحارث الأصغر والد النعمان وعمرو أصحاب الجيوش القوية التى اشتبكت فى حروب مع بنى أسد وبنى فزارة ووقع كثير من أسرى

القبيلتين فى يد عمرو، وتوسل إليه النابغة الذيبانى ليطلق سراحهم ومدحه ومدح أخاه النعمان بكثير من قصائده ومنها بائيته المشهورة التى يقول فيها:

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهدى بعصائب
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

ولحسان بن ثابت فى مدح عمرو بن الحارث قصيدة طويلة منها:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول

ومن أشهر الملوك الغساسنة: الحارث بن جبلة وولداه: عمرو والنعمان والأيهم وجبلة بن الأيهم صاحب الحظ الوافر من الثراء والترف وقد أسلم عندما ظهر الاسلام ودخل المدينة مسلما فى مركب حافل من حاشيته وكان يضع على رأسه تاج أجداده تزينه لؤلؤتان كانا فيما مضى قرطين لأم الحارث بن جبلة.

وأما إمارة كندة التى قامت فى شرق نجد بين الإمارتين السابقتين فكانت خاضعة للتتابعة باليمن.

والكنديون ينسبون إلى اليمن أيضاً كما ينسب الغساسنة والمناذرة. وأشهر ملوكها حجر الملقب بآكل المرار وقد استطاع أن يفرض سيادته على القبائل الشمالية فى نجد وأن يمد نفوذه إلى اليمامة وتخوم إمارة المناذرة، ودانت له بالولاء والطاعة قبيلتا بكر وتغلب، وخلفه ابنه عمرو الذى يلقب بالمقصور لأن سلطانه كان محدوداً بالنسبة لسطان أبيه، ولأن بكر وتغلب تنكرتا له ولم يدينا له بالطاعة مثل أبيه.

وفى عهد الحارث بن عمرو بلغت كندة ذروة مجدها، ولجأت إليه بكر

وتغلب ليصلح بينهما، وعقد محالفة بينهما وبين امبراطور بيزنطة والتقى فى حروب كثيرة مع المناذرة وزوج أخته المنذر بن ماء السماء وتحقق له النصر فى كثير منها، وتولى إمارة الحيرة حقبة من الزمان ولم يزل يحكمها حتى قتله المنذر وقتل معه أكثر من أربعين أميراً من بيته، وبلغ من خطورة المنذر أنه أوقع بالفتنة بين أبناء الحارث فتحاربوا وقتل بعضهم وجن ابنه معد يكرب وتمردت قبيلة أسد على ابنه حجر والد امرئ القيس الشاعر الجاهلى المشهور. وحاول حجر جاهداً أن يسترد ملك أبيه الحارث، ولكن المنذر كان له بالمرصاد، واضطر أن يستعين بامبراطور الروم ليحارب المنذر ولكن القدر لم يمهله فقد مات وهو فى الطريق إليه.

وهكذا انتهت تلك الإمارة بمقتل حجر على يد بنى أسد ثم بموت ولده امرئ القيس فى أنقرة وهو راجع من عند قيصر الروم.

وأما مكة فهى أشهر القرى العربية الحجازية الثلاث التى استقرت فيها الحياة (مكة – المدينة – الطائف)، وقد استمدت شهرتها من وجود الكعبة بها، ومن وقوعها فى منتصف طريق التجارة الأساسى بين اليمن والشام، ومن ظهور بئر زمزم الدفاقة بالماء الصالح للشرب بها والتى لولاها لما دبت الحياة فى هذه المنطقة المقفرة المجدبة التى تحيط بها جبال الحجاز الوعرة من كل جانب. وقد عمل ذلك كله على أن تصبح مكة وطن العرب الروحى، ومهد الوثنية التى كانت أكثر القبائل العربية تدين بها، وأيضاً مركز الحياة الاقتصادية الذى كانت تسيل إلى شعاب الجزيرة العربية من شتى أرجائها. وبهذا توافرت لمكة مقومات «المدنية والتحضر بالنسبة لغيرها»، وقامت بها شبه حكومة نظامية تمثلت فى مجلس «الملأ» الذى كان ينعقد كلما دعت الحاجة فى «دار الندوة القريبة من الكعبة»، والذى كان يمثل السلطة الحاكمة

فيها تتولى إدارة شئونها الدينية والاقتصادية والاجتماعية[١].

وأما يثرب (المدينة المنورة)، فقد كان يسكنها الأوس والخزرج، ومعهم يهود بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع. وقد تنازع الحكم فيها الأوس والخزرج، وأراد كل فريق منهما أن يكون الحاكم من رجاله.

وبعد جدل متواصل، وحروب عنيفة تعددت أيامها التى من أشهرها «يوم بعاث» استقروا على أن يكون الحكم بينهما بالمناوبة، فيحكم فى كل عام زعيم من زعماء الحى الواحد، يليه فى العام الثانى زعيم من الحى الثانى، وشاءوا أن يكون «ملك» لقب الحاكم عندهم، وبذلك يكونون قد وضعوا لهم نظام التناوب فى الحكم، فيكون لهذه المدينة ملك كل عام.

وحرى بالذكر: أن العرب الذين عاشوا فى هذه المدن ذات المسحة السياسية، وفى القرى العربية الأخرى المتناثرة فى أرجاء الجزيرة قد عاشوا – على الرغم من هذا – حياة قبلية لا تختلف عن حياة القبائل البدوية الضاربة فى أعماقها إلا فى استقرارها.

هذا عن القسم الأول من العرب. وأما القسم الآخر منهم فلم يكن لهم وضع سياسى، وإنما كان النظام القبلى هو السائد فيهم، ولم تكن هناك حكومة مركزية ترعى مصالح الشعب بأجمعه، وتنفذ القانون على الجميع، وتنشر العدل والطمأنينة والأمن بين جميع الطبقات، إنما كانت كل قبيلة بمثابة دول مستقلة لها كيانها الذاتى الخاص، شعبها يتكون من أفراد فقط، ولها وطنها وحرمها الذى تحافظ عليه، وتدافع عنه وتحميه، ولذلك كان يسمى «الحمى». وهذا الحمى كان حرماً للقبيلة لاينبغى أن يمسه أو يقترب منه أجنبى، مثله مثل

(١) انظر: تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على: ٣/٢٣٠.

حدود الدولة فى عصرنا الحاضر. وكان أفراد القبيلة يتعاونون ويتساندون فى الحفاظ على شرف القبيلة وحماها، وهم متساوون فيما بينهم، ولا يعتبرون غيرهم أعلى منهم، أو حتى مساوياً لهم، ولا يدينون بالطاعة إلا لرئيس قبيلتهم، فوطنيتهم كانت وطنية قبلية لا وطنية شعبية، كما كانت الحرية التى يتغنون بها ويتمسكون بها حرية شخصية لا حرية اجتماعية، وكان على القبيلة فى مجموعها أن تحمى كل فرد من أفرادها وتهب كلها للدفاع عنه والأخذ له بحقه، أو الانتصاف له إن أصابه ضيم، أو مست كرامته، ومن هنا كان لهم القول المشهور: «فى الجريرة تشترك العشيرة»؛ فالقبيلة كانت تعتمد على أفرادها فى قوتها وحياتها وشرفها وهيبتها، وكان الفرد يعتمد على القبيلة فى كل ماله من حقوق، نظير ما كان عليه من واجبات، لذلك اشتد تعلق القبائل بأفرادها، كما اشتد تعلق الفرد بقبيلته، ومن هنا وجدت بينهم العصبية قوية، فكان التعصب للدم شديداً؛ ووقف الفرد بجانب أخيه من قبيلته فى جميع الأحوال ظالماً كان أم مظلوماً.

ولشدة اهتمامهم بالقرابة والصلة العصبية ولحمة النسب الأبوية اهتموا بالأنساب اهتماماً عظيماً. فكان الواحد منهم يعرف نسبه ونسب قبيلته محدداً مضبوطاً، ونرى أثر ذلك فى أشعارهم التى تفيض بذكر الآباء والأجداد والبنين والأحفاد؛ ولشدة اهتمامهم بالنسب عرف قوم منهم كانوا مشهورين بمعرفة أنساب العرب حتى سموا بالنسابين وكانت القبائل تعيش فى العصر الجاهلى حياة بدوية غير مستقرة أساسها الحركة الدائبة المستمرة بحثاً عن موارد الماء ومنابت الكلأ، أو – بعبارة أخرى – بحثاً عن فرص العيش والحياة. ومن هنا كانت الحركة هى القاعدة التى تقوم عليها حياة القبائل البدوية فى أرجاء شبه الجزيرة العربية. وعلى أساس هذه القاعدة المتحركة

أصبحت فكرة (المدنية) أمراً خارجاً عن نطاق العقلية البدوية، فاختفت هذه الفكرة من تصور البدوى، وحلت محلها فكرة «الحمى» التى أشرنا إليها آنفاً.

ولوجود النظام القبلى بين أهل البادية، وانتشار الفوضى وتهديد الأمن والسلام فى أية لحظة، كان يهم القبيلة أن يكون أفرادها كثيرين، فمن أقوالهم: «للكثرة الرعب» حتى يمكنها أن تواجه الأخطار بما يملأ قلوب الأعداء خوفاً ورهبة. وكثرة الأفراد كانت إما عن طريق كثرة أفراد القبيلة نفسها، أو عن طريق التحالف مع قبيلة أو قبائل أخرى، فيكون أفراد هذا الحلف، وإن اختلفت قبائلهم، متضامنين يشد كل منهم أزر الآخر، فيكونون بمثابة قبيلة واحدة، وأفرادها إخوة كأنهم من دم واحد لا يعتدى أحد منهم على الآخر، ويقف بجانبه فى الشدة، ويشاركه فى البأساء والضراء، ويكون لكل فرد من أفراد هذا الحلف ما لزميله من الحقوق، وعليه ما على صاحبه من واجبات.

ومن هذه الأحلاف: حلف المحاش: بين قبائل مرة بن عوف الذبيانيين وحلف الرباب: وهم خمس قبائل: حنبة وثور وعكل وتيم وعدى. وحلف المطيبين بين بنى عبد مناف وبنى زهرة وبنى تيم وبنى أسد ضد بنى عبد الدار وأحلافهم. ويقال: إنهم سموا بذلك لأنهم غمسوا أيديهم فى جفنة ملئت طيباً.

فعلاقة القبائل بعضها ببعض علاقة عداء غالبا، فالقبيلة إما مغيرة على أخرى، إلا أن يكون بين بعض القبائل حلف من الأحلاف التى ذكرنا لها أمثلة آنفا. ولذلك كانت الحرب بين الأفراد من قبائل مختلفة أو بين القبائل

المختلفة تشغل أكبر حيز فى تاريخهم، حتى رووا أن دريد بن الصمة عمر نحو مائة عام غزا فيها نحو مائة غزوة. ومن أجل هذا أيضا كانت الحروب والنصرة والهزيمة وما إليها أكبر موضوع تناول القول فيه الشعراء الجاهليون، وكان لابد لفهم الشعر والأحداث التاريخية فى ذلك العصر من معرفة القبائل العربية، وما كان بينها من عداء أو حلف.

ومعروف أن العرب ينقسمون إلى شعبين كبيرين هما:

١- العدنانيون (عرب الشمال).

٢- القحطانيون (عرب الجنوب).

ومعروف أيضا أن العدنانيين ينقسمون إلى فرعين كبيرين: ربيعة ومضر، وكلاهما تفرع إلى فروع كثيرة. وأن اليمنيين أو القحطانيين ينقسمون كذلك إلى فرعين كبيرين هما: فرع كهلان وفرع حمير.

وفى الصفحتين التاليتين جدولان يوضحان أهم فروع العدنانيين، وفروع القحطانيين:

﴿ ٦٥٦ ﴾

## الجدول الأول

فرع ربيعة:

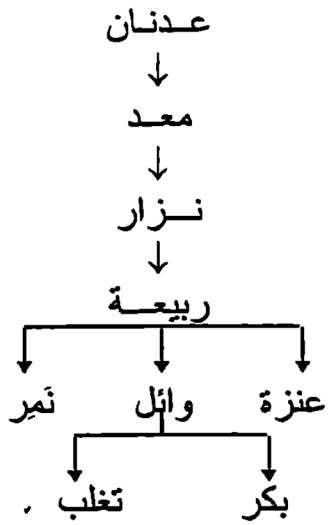


فرع مضر:

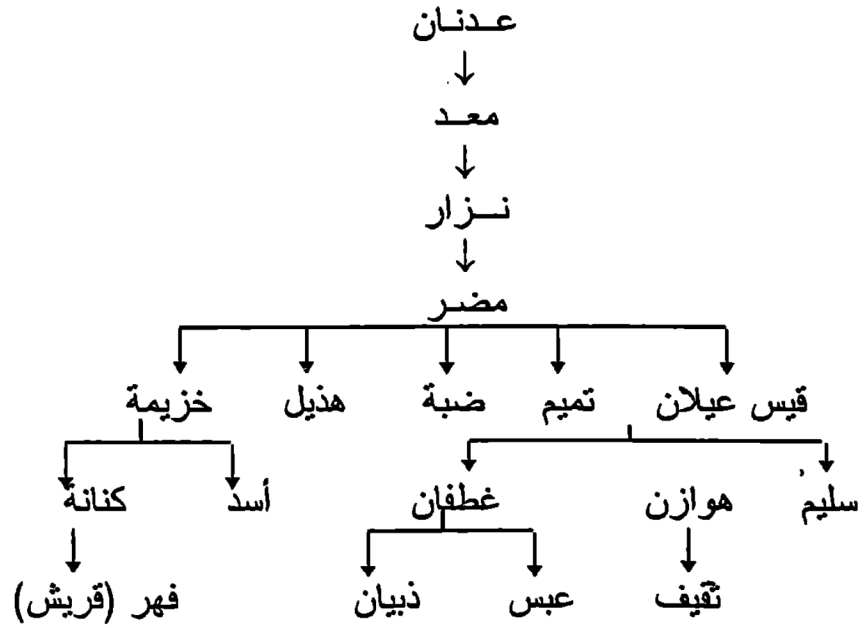


وكان بين ربيعة ومضر عداء شديد ظل قرونا طويلة حتى إن ربيعة كانت تتحالف غالبا مع اليمنيين لمقاتلة المضريين.

وأما اليمنيون أو القحطانيون فينقسمون – كما قلت – إلى فرعين كبيرين فرع كهلان وفرع حمير، وهذان جدولان يبينان أهم فروعهما.

فرع كهلان:

فرع حمير:

والعربى فى النظام القبلى «كان يتأرجح بين قطبين: فردية تدفعه إلى رفع كل ضغط وتثبيت الحقوق الدائمة لنفسه تجاه الحقوق الجماعية، وتعلق من ناحية أخرى بجماعته بصورة عميقة قد تصل إلى حد التضحية بالنفس[١].

والقبيلة تظل متمسكة بكل فرد من أفرادها، تحافظ عليه، وترعاه، وتنتصف له، ما دام يسير وفق قانونها، وحسب نصائحها، ووفق رغبتها وإرادتها، فإذا ما بدر منه سلوك لا ترضاه، أو اعتاد أموراً لا توافق عليها، خلعته من جماعتها، ونفته من مجلسها، وطردته من بينها ويسمى عند ذلك خليعا [٢] وفى ذلك يقول طرفه من معلقته المشهورة:

وما زال تشرابى الخمور ولذتى وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى
إلى أن تحامتنى القبيلة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد

فتتصل منه القبيلة على رؤوس الأشهاد، وتعلن تبرؤها مما اقترفه من أفعال، وكثيراً ما كان يحدث ذلك حيث الجميع حضور، ليعرف الناس ذلك فلا يؤاخذوها على جرائم يقترفها، فيصبح مخلوعاً[٣] من القبيلة كأنما سحبت منه جنسيته وعليه حينئذ أن يبحث عن مكان يؤويه أو جماعة ينزل معها أو تساعده ، والغالب أنه ينتقل من مكان إلى مكان، ومن قبيلة إلى أخرى لصعوبة حمايته إذا كان من المشاغبين الأشرار، الذين لا يستطيعون المعيشة بهدوء كسائر الناس.

«وقد يتكتل هؤلاء الخلعاء ويجتمعون مع الصعاليك، فيؤلفون عصابات خطيرة، تعيش على السلب والنهب وقطع الطرق لكسب الرزق،

(١) تاريخ الأدب العربى لبلاشير ص ٣٥ وتاريخ الأدب العربى لعلى الجندى: ص ٩٦.
(٢) وإذا التجأ فرد إلى غير قبيلته لتحميه وتدافع عنه يسمى حينئذ حليفا أو مولى.
(٣) الأغانى: ٥٦/٩، ٨٧، ٩٥.

فتلقى الرعب فى النفوس، وتنعم بما فى يديها من مال حرام تبدده وتبذره على عادة الشذاذ من الناس، ومن يحصل على قوته بهذه الطرق. ولعدم مبالاة هؤلاء، وشجاعتهم، وعدم اهتمامهم بالحياة استخدم بعضهم فى أعمال انتقامية مثل الفتك بالخصوم»(١).

والحقيقة أن التشكيلات القبلية لم تكن محصورة فى أهل اليدو فقط، بل كانت كذلك موجودة فى المدن بين أهل الحضر. فكان على رأس كل قبيلة أو رهط مجلس مؤلف من رؤساء الأسر أو رؤساء الرهط تبعاً لمقياس القبيلة، وإلى هذا المجلس تعود مناقشة جميع القضايا التى تهم القبيلة»(٢).

وكان لكل مجلس رئيس، هو شيخ القبيلة، وهو شخصية فذة يختارها الجميع ليكون المعبر بلسان جماعتهم، والمنفذ لإرادتهم، فكانت «أوامره مستمدة من مداولات المجلس، وهو بعبارة أوضح منفذ، مزود بسلطة إيحائية، وعليه بعد استشارة القدماء والذوات أن يقود جماعته إلى المعارك، وأن يستقبل الوفود، وأن يشرف على مفاوضات الصلح والمحالفات وإشهار الحرب وإضافة الضيوف، واتخاذ التدابير فى سنى القحط، وتحديد حركات الطعون»(٣).

وكان الرئيس يختار من ذوى.الشخصيات القوية الممتازة، وتتحقق فيه صفات خاصة، أهمها الوقار، والهيبة، وسداد الرأى وبعد النظر، والطموح والحزم والإيثار والتضحية، والغنى، والجود، والسخاء، والشجاعة والقوة، والحلم، والصبر، والرزانة والثبات، فلا يفرح للخير، ولا يكبو للضر، ولا

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على: ٤/٢٢٤.
(٢) تاريخ الأدب العربى لبلاشير: ص ٣٥.
(٣) السابق: ص ٣٦.

تبطره النعمة، ولا تغمه الشدة، قد أحكمته التجارب، وله خبرة بطبائع النفوس، وحسن معالجة الأمور، ويتسم بالإخلاص، والأمانة، والوفاء، والسهر للمصلحة العامة، والعمل على إعلاء كلمة القبيلة ورفع شأنها، ومن خير ما قيل من شعر فى أهم صفات الرئيس قول لقيط الأيادى يخاطب قبيلته إيادا[١]:

وقلدوا أمركم لله دركم ... رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده ... ولا إذا عض مكروه به خشعا
لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه ... هم يكاد سناه يقصم الضلعا
مسهد النوم تعنيه أموركم ... يروم منها إلى الأعداء مطلعا
ما انفك يحلب هذا الدهر أشطره ... يكون متبعاً طوراً ومتبعا
حتى استمرت على شزر مريرته ... مستحكمُ الرأى لا قحما ولا ضرعا
وليس يشغله مال يثمره ... عنكم، ولا ولد يبغى له الرفعا

وكان للقبيلة – بجانب الرئيس – حكام، وهم رجال امتازوا فى القبيلة برجاحة العقل وصدق النظر، قد يفزع إليهم فى الخصومات الأدبية، كالمفاخرة فى النسب وغيرها. وكانت حرية الأفراد فى مثل هذا النظام أوسع بكثير منها فى الحكومات المنظمة.

وكان لشيخ القبيلة امتيازات كأنها قوانين منها – على سبيل المثال – أن له ربع الغنائم وما يصطفيه لنفسه منها قبل توزيعه، ويسمى ذلك: «المرباع» و«الصفى» ومنها: «النشيطة» وهى ما يصيبه شيخ القبيلة فى طريقه إلى الغزو قبل أن يصل بأهله إلى من يريد غزوهم. ثم إن له «الفضول» وهو ما لا يقبل القسمة على عدد الغزاة من بواقى القسمة كالفرس والبعير.

(١) مختارات ابن الشجرى: ص ١.

﴿ ٦٦١ ﴾

وفى هذا قال أحد شعراء شيبان مخاطباً شيخ قبيلته:

لــك المربـــاع فينـــا والصفايـــا وحكمـــك والنشـــيطة والفضـــول

وكان الهدف من منحه هذه الامتيازات ونحوها: إشعار شيخ القبيلة بمكانته عندهم، وليعد هذه الأموال لما قد يطرأ، ثم تعويضاً لما يتحمله من النفقات على أفراد قبيلته فى الحرب إعدادا وفى السلم قرى لضيوفه.

ومما لا شك فيه: أن تلك الحياة السياسية للعرب فى الجاهلية كانت لها أصداؤها فى أدبهم، وانعكاساتها على شعرائهم وخطبائهم. فلقد كان الشعراء فى قبائلهم لسان حالهم، والمذيعين لأخبارهم، والمسجلين لأمجادهم ولذلك كثر الشعراء فى هذا العصر كثرة لا يحيط بها محيط، ولا يقف وراء عددها واقف، ولو أنفذ عمره فى التتقير عنهم، واستفرغ مجهوده فى البحث والسؤال. ولذلك احتل الشعراء فى العصر الجاهلى مكانة مرموقة ومنزلة سامية يؤكدها قول ابن رشيق فى كتابه العمدة: «كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون فى الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهن، وذب عن أحسابهم، وتخليدا لمآثرهم، وإشادة بذكرهم، وكانو لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ، أو فرس تنتج»(١).

والقصص التى تثبت ذلك كثيرة منها ما روى أن الأعشى مدح المحلق الكلابى (عبد العزى بن عامر) الذى كسدت بناته فتزوجن جميعاً، وقصة حسان بن ثابت مع بنى عبد المدان الذين هجاهم ثم أصلح الأمر فمدحهم بقوله:

وقـــد كنـــا نقـــول إذا رأينـــا لـــذى جســـم يعـــد وذى بيـــان

(١) العمدة: لابن رشيق: ص

﴿ ٦٦٢ ﴾

كـــأنك أيهـــا المعطـــى بيانـــا وجسـما مـن بنـى عبـد المـــدان

بعد أن جعلهم يستحون من أجسامهم لقوله:

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ جسـم البغـال وأحـلام العصـافير

والظاهرة الفنية التى تلفت النظر أن الشعر العربى ظهر وازدهـر بيـن القبائل البدوية، وبخاصة تلك القبائل التى كانت تنزل فى إقليـم نجـد، فقد شـهد هذا الإقليم أولية هذا الشـعر كمـا شـهد تطـوره وازدهـاره. أمـا القـرى والمـدن العربية التى استقرت بها الحياة فلم تشهد إلا نشاطاً فنياً محدوداً مثلتـه قلـة مـن الشعراء ظهروا فيها من أمثال أميـة بـن أبـى الصلـت شـاعر الطـائف الكبـير، وبعض شعراء الأوس والخزرج فى المدينة، بل إن مكة – وهى أشـهر مدينـة فى الجزيرة العربية كلها – لم تشهد طوال العصر الجاهلى نشـاطاً أدبيـاً يلفـت النظر. أما الإمارات العربية فقد شهدت حقا حركات أدبية نشطة، ولكنها كـانت – فـى أكـثر جوانبهـا – حركـات وافـدة، إذ أتـاحت لهـا ظروفهـا السياسـية والحضارية أن تصبح مراكز جذب نشطة لشعراء البادية، على نحو ما نعـرف عن البلاط الحيرى الذى كان يموج بشعراء البادية الوافديـن عليـه، لا نسـتثنى من ذلك إلا إمارة كندة التى كانت – بحكم وضعها الجغرافى فى إقليـم نجـد – مركزاً من مراكز النشاط الأدبى فى هذا العصر، ففيهـا لمـع امـرؤ القيـس أبـو الشعر الجاهلى، ولمع معه شعراء آخرون.

ولعـل هـذا التوزيـع الجغرافـى لمراكـز النشـاط الأدبـى فـى العصـر الجاهلى بين البادية والحاضرة هو الذى جعل ابـن سـلام يفـرد لشـعراء القـرى العربية قسما مستقلاً فى كتابه «طبقات الشعراء» فـى مقـابل الشـعراء الفحـول من البادية الذين صنعوا الحياة الأدبية فى هذا العصر، وشكلوها وفق مقاييسهم الفنية الدقيقة.

ومعنى هذا أن الشعر الجاهلى شعر بدوى قبلى، نشأ فى أحضان البادية فى حمى القبائل الضاربة فيها نبتا صحراوياً أصيلاً غرسته هذه القبائل فى رمالها، وعكفت عليه الطلائع المبدعة من أبنائها ترعاه وتمد له من أسباب الحياة ما أتاحته لها طاقاتها ومواهبها الفنية، ثم تلقته أيدى القمم الشامخة من شعرائها تحقق له هذه النهضة الرائعة التى يلاحظها كل متتبع لحركته الخصبة على امتداد هذا العصر.

لقد نشأ الشعر الجاهلى ونما وازدهر فى ظل تلك الحياة القبلية القائمة على أساس ذلك «العقد الاجتماعى» الذى ينظم العلاقات بين أفراد القبيلة الذين كان عليهم أن يلتزموا به التزاما دقيقاً ولم يكن الشعراء إلا أفراداً من ذلك المجتمع القبلى الذى يؤمن بهذا العقد، عليهم أن يلتزموا، وأن يمارسوا حياتهم وفقاً لتقاليده وأعرافه شأنهم فى ذلك شأن سائر أفراد مجتمعهم، ولكن عليهم – فوق ذلك – أن يقفوا عليه فنهم، وأن يكونوا دائماً «مجندين تحت السلاح» فى خدمته، يؤدون ضريبة القبيلة إشادة بأمجادها، وإذاعة لمفاخرها، ودفاعاً عن كرامتها وشرفها، ثم حطا من شأن أعدائها، وهجاء لهم، وإعلانا لمخازيهم فى المحافل وبين القبائل. وكان من نتيجة ذلك أن قام بين الشاعر وقبيلته «عقد فنى» يفرض عليه ألا يتحدث عن نفسه فى شعره إلا بقدر محدود وفى نطاق ضيق، وإنما يتحدث عن قبيلته، ويجعل من شعره سجلا لحياتها، ومن لسانه لسانا لها، يعبر عن آمالها وآلامها، ويرسم الخطوط العامة لسياستها، ويعلن على الملأ أهدافها وغاياتها. وفى مقابل هذا تمنحه القبيلة لقب «شاعرها» فتتحمس لشعره وتتعصب له، وتحرص على حفظه وروايته وإذاعته فى كل مقام. ومن هذا كانت منزلة الشاعر فى قبيلته منزلة رفيعة لا تقل عن منزلة الفارس فيها، فكلاهما جندى عامل فى جيشها، يشارك فى الهجوم والدفاع،

﴿ ٦٦٤ ﴾

وقديما قال شاعرهم «وجرح اللسان كجرح اليد». ولذلك كان من أرفع ألقاب التمجيد وأسمى أو سمة الشرف التى تمنحها القبيلة لأحد أبنائها أن تخلع عليه لقب «شاعر فارس».

وكانت النتيجة الفنية لهذا «العقد الفنى» أن ظهرت تلك الطائفة من «شعراء القبائل» الذين سيطروا على الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى، وطبعوا شعر هذا العصر – فى جملته – بطابع قبلى ميزه من الشعر العربى فى سائر عصوره، فاختفت من هذا الشعر النزعة الذاتية لتحل محلها النزعة الجماعية، وذابت منه الشخصية الفردية لتحل محلها الشخصية القبلية، وظهر ضمير الجماعة، وذابت منه الشخصية الفردية لتحل محلها الشخصية القبلية ، وظهر ضمير الجماعة «نحن» بدلاً من ضمير الفرد «أنا» وأصبحت الألوان التى يرسم بها الشاعر لوحاته الفنية مشتقة من قبيلته لا من نفسه، أو – بعبارة أخرى – صارت «صناديق أصباغه» مستعارة من قبيلته وليست صادرة عن نفسه، وصارت «ريشته» التى يلون بها لوحاته ملكاً لأفراد القبيلة جميعاً وليست ملكاً له، فهو حين يفتخر يفتخر بقبيلته، وحين يهجو يهجو أعداءها، وحين يمدح يمدح سادتها أو سادة القبائل الذين أعانوها ووقفوا معها.

ولعل أقوى مثل لظهور هذا «العقد الفنى» فى الشعر الجاهلى معلقة عمرو بن كلثوم «شاعر تغلب» التى تدوى فيها أصداء هذا العقد بصورة قوية. فهو يبدؤها بمقدمة غزلية يتحدث فيها عن الخمر وأثرها فى شاربيها، وعن صاحبته التى تسقيه، ولكنه لا يطيل فيها، بل يسرع بعيداً عن صاحبته وخمرها ليتحدث عن قبيلته ومفاخرها حديثاً ينسى فيه نفسه نسياناً تاماً، فهم أشجع الناس، وهم أكرم الناس وهم أشد الناس تمسكاً بمثل الجاهلية وتقاليدها، ويظل مندفعاً فى هذا النغم القبلى حتى يختم معلقته الطويلة بفخر قوى يجعل

الدنيا ومن عليها ملكا لهم، ويجعل الجبابرة العتاة يخرون سجداً لصبيهم إذا بلغ الفطام، ويجعل البر والبحر يضيقان برجالهم وسفنهم. وعلى امتداد المعلقة التى تبلغ مائة بيت لا نسمع ضمير المتكلم المفرد إلا فى بيت واحد، أما سائر الأبيات فتدوى كلها بضمير الجماعة الذى اتخذ منه أداة الحديث بلسان قبيلته، على نحو ما نرى فى هذه الأبيات:

وقد علم القبائل من معد إذا قبت بأبطحها بنينا
بأنا العاصمون بكل كحل وأنا الباذلون لمجتدينا
وأنا المانعون لما يلينا إذا ما البيض زايلت الجفونا
وأنا المنعمون إذا قدرنا وأنا المهلكون إذا أتينا
وأنا الشاربون الماء صفوا ويشرب غيرنا كدراً وطينا
لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
إذا بلغ الفطام لنا صبى تخر له الجبابر ساجدينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نملؤه سفينا

على هذه الصورة كان شاعر القبيلة يسير دائما فى ركابها، ويشد نفسه وفنه إلى عجلتها، ويربطها بأحداثها، فهو يدافع عنها، ويحمسها للقتال إذا ما دعا داعى الحرب، ويسجل انتصاراتها إذا انتصرت، ويهون عليها الهزيمة ويهيئها لمعركة الثأر إذا انهزمت، ويرثى قتلاها، ويمجد أبطالها، ويهجو أعداءها ويعيرهم بالهزيمة إذا هزموا، أو يتوعدهم ويهددهم إذا انتصروا. وهو فى أثناء ذلك ينسى نفسه، ولا يفكر فى أن يصدر عنها، فكل همه أن تكون قبيلته ماثلة أمامه، يصدر عنها، ويشتق معانيه منها، حتى عندما تقتضيه مجالات القول وفنون التعبير أن يفرغ لنفسه فى شعره، فإنه يظل دائراً فى فلك قبيلته، فهو لا يكاد يفرد قصيدة من شعره لتصوير عاطفة من عواطفه

الشخصية، أو نزعة من نزعاته الفردية، ولكنه يذكر ذلك – إذا ذكره – فى أثناء حديثه عن قبيلته، فهو يتغزل فى مستهل قصائده القبلية، ويذكر لهوه بالنساء وشربه الخمر ومقامرته فى أثناء فخره بشجاعته وفروسيته ومروءته التى يضعها كلها فى خدمة قبيلته، وهو يصف ناقته أو فرسه أو ما يراه فى أثناء رحلاته من حيوان الصحراء أو من مشاهدها الطبيعية فى أثناء الحديث عن قبيلته وهو إذا ذكر رأيا له فى الحياة أو الموت، أو سجل حكمة أو تجربة من تجارب حياته، ذكر ذلك عرضا أو فى نهاية قصائده بعد أن يفرغ من التعبير عن حقوق القبيلة عليه. وهكذا عاش الشاعر الجاهلى لقبيلته متنقلا معها فى مواكبها التاريخية، مسجلاً كل أحداثها، تماماً كما يفعل المؤرخ، حتى كان الشعر الجاهلى – كما قال القدماء – «ديوان العرب» ومصدراً من مصادر تاريخهم.

هذه هى الصورة العامة التى استقرت عليها القصيدة العربية فى العصر الجاهلى – من حيث الشكل والمضمون – عند «شعراء القبائل»، التزموها التزاماً دقيقاً طبع الشعر الجاهلى – فى جملته – بذلك الطابع القبلى الذى تحدثنا عنه. وهو طابع لم يخرج عليه إلا تلك الطائفة من الشعراء الذين عرفوا باسم «الشعراء الصعاليك».

وبعد: فحسبنا هذا القدر من الحديث عن الحياة السياسية للعرب فى العصر الجاهلى، ففى هذا القدر ما يؤكد أن تلك الحياة كانت من بين العوامل التى أثرت تأثيراً قوياً فى أدب هذا العصر على النحو الذى لمسنا شواهده فى ثنايا ما ذكرناه.

﴿ ٦٦٧ ﴾

# الحياة الاجتماعية والأخلاقية

تتشكل الحياة الاجتماعية لأمة من الأمم وفقاً للعلاقات الاجتماعية فيها، سواء كانت تلك العلاقات ممثلة للمجتمع الصغير الذى هو الأسرة أو ممثلة للمجتمع الكبير الذى هو القبيلة هنا.

فالقبيلة هى الوحدة الأولى التى تكونت منها الأمة العربية فى ذلك العصر. ويلاحظ أن المجتمع الجاهلى كان موزعاً بين الأحرار والعبيد رجالاً ونساء، وكان لكل وظيفته الحيوية التى يفرضها عليه واقعه الاجتماعى.

وبتقسيم أكثر تفصيلاً يمكن القول: إن المجتمع الجاهلى كان يضم فى صفحته أربع طبقات من الناس:

١- الطبقة الأولى: أبناء القبيلة وهم الذين يربط بينهم الدم والنسب، وهم عمادها وقوامها، وهم السادة والأشراف فى المجتمع.

٢- الطبقة الثانية: الموالى وهم الذين دخلوا فى حمى القبيلة وعاشوا فيها، ثم عتقتهم القبيلة وصاروا من عتقائها الموالين لها.

٣- الطبقة الثالثة: الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم عنها لكثرة جرائرهم وجناياتهم، وكانوا يعلنون هذا الخلع على رؤوس الأشهاد فى أسواقهم ومجامعهم، وقد يستجير الخليع بقبيلة أخرى فتجيره، وبذلك يصبح له حق التوطن فى القبيلة الجديدة، كما يصبح من واجبه الوفاء بجميع حقوقها، مثله مثل أبنائها.

ومن هؤلاء الخلعاء: طائفة الصعاليك المشهورة بمنهجها الفكرى

والفنى وقد كانوا أكثر الخلعاء خروجاً على المجتمع الجاهلى حيث اتخذوا من الصحراء العربية وجبالها وتلالها مسرحاً واسعاً لحياتهم التى كانوا يطبعونها بما نسميه اليوم الحرية المطلقة وكان لاهم لهم إلا شن الغارات على من حولهم طلباً للعيش مهما لاقوا فى سبيل ذلك من الصعاب والعنت وطول الرحيل على نحو ما نعرف عن الشنفرى والسليك بن السلكة وتأبط شراً[1]. ومع ذلك فإننا لا نستطيع بحال أن ندخل هؤلاء الصعاليك جميعهم فى دائرة طريدى الإنسانية فقد كان منهم نفر قليل يبغون من وراء ذلك عملاً إنسانياً عجيباً فى بنائه وتكوينه، حيث كان هؤلاء القلة يأخذون بعض ما بأيدى الأغنياء عنوة ثم يقسمون ما يأخذونه منهم على فقراء العرب الذين لا مأوى لهم ولا ملجأ، حتى لكأنهم يرسمون فى خضم الحياة الجاهلية الصاخبة لوناً من ألوان الاشتراكية فى ذلك المجتمع.

٤- الطبقة الرابعة: العبيد والإماء الذين استجلبتهم القبائل من البلاد الأجنبية، وبخاصة المجاورة للجزيرة العربية كالأحباش. ويدخل فى هذه الطبقة: أسرى وسبايا الحروب والغارات التى تشنها القبيلة على الأخرى ما بين آن وآخر. وهذه الطبقة هى طبقة الضعفاء التى يحرم عليها سادتهم ما يحلونه لأنفسهم، وكانوا فى خدمة السادة دائماً وعلى دينهم ومادة لمتعهم يتخذون من ذكورهم سقاة الخمر ورعاة الإبل والغنم ومن نسائهم الجوارى والقيان، وكان ذلك يكثر أكثر ما يكثر فى مجتمعات اللهو والسمر ليلا حيث يعاقرون الخمر التى جرى ذكرها فى أكثر ما وصل إلينا من الشعر الجاهلى،

(١) من الصعاليك من كان يظل فى قبيلته لفضل فيه مثل عروة بن الورد، وكان كريماً فياضاً، وقد أثر عنه أنه كان يجمع إلى خيمته فقراء قبيلته عبس ومرضاها، متخذاً لهم حظائر يأوون فيها، قاسماً بينه وبينهم مغانمه وبقاؤه فى قبيلته يدل على أن الخلع=

وكان أكثر وصافيها من الشعراء الذين نزحوا إلى الحيرة وعرفوها من جيرانهم الفرس، كما أخذوها عن اليهود جيرانهم.

ومما تجدر الإشارة إليه: أن طائفة من الإماء كن يمتهن العهر، ويتخذن الأخدان. وطائفة منهن كن يعملن فى حوانيت الخمارين قينات يغنين ويضربن على المزهر، ويقمن بإغراء الرواد، فهن وسيلة من وسائل الربح فى أيدى تجار المتعة من اليهود أو الروم أو الفرس. والقرآن الكريم يصور ذلك فى قوله تعالى من سورة البقرة: «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم»[1]. وكان إلى ذلك منهن من يقمن بالأعمال الشريفة من رعى الإبل والغنم والقيام على خدمتها أو خدمة السادة فى البيوت، كما كان كذلك العبيد، خصوصاً فى أعمال التجارة والزراعة، والصناعات التى تحتاج إلى جهد وطاقة.

ويحاول الغرب المسيحى الانتقاص من الاجتماعية العربية لاتخاذهم الرق والعبيد، وليس من الحق أن نحمل قوماً ظلماً اجتماعياً لم يكونوا بدعاً فيه، فالرق كان معروفاً وشائعاً عند كثير من الأمم الأخرى كالروم والفرس، وإنما الاختلاف بين أمة وأمة فى معاملة هؤلاء العبيد، فالرومان مثلاً أباح لهم القانون إماتة العبد واستحياءه، وكثر العبيد عندهم فذكر أحد مؤرخيهم «أن الأرقاء فى الممالك الرومانية يبلغون فى العدد ثلاثة أمثال الأحرار»[2]

= إنما كان يحدث فى حالات شاذة.

(١) سورة النور: الآية ٣٣.

(٢) فجر الإسلام لأحمد أمين: ص ٨٥ الطبعة العاشرة ١٩٦٥م.

واليهود كانوا يمتهنون الأرقاء ويوجهون إليهم صنوف العذاب والقهر لدرجة الموت وربما لا نبالغ إن قلنا: إن العرب هم أكثر الأمم إحساناً إلى مواليهم.

والرقيق فى العصر الجاهلى كان سلعة تجارية يتداولها الأثرياء فى العالم، وكان نظام الاسترقاق فى الحروب منتشراً، فلو تخلى العرب عن تلك الناحية لكانوا بدعاً شاذاً فى زمانهم يُسترقون ولا يَسترقون.

وعلى الطرف الآخر، إذا اعتبرنا الإسلام غاية البشرية المثلى فى التشريع الاجتماعى فقد أحل الإسلام الرق، ولكنه وضع أسسا قويمة لمعالجة تلك الناحية والقضاء عليها تدريجياً.

ونحن يجب أن لا ننخدع بالمسميات، وعلينا أن نلمس جوهر الحقائق، فالأمم التى تنتقد العرب لاستخدامهم الرقيق، نراهم اليوم يتعاملون بالرق وبصور أبشع، فالعرب كانوا يسترقون الفرد، وهؤلاء يسترقون الأمة بكاملها ويستعبدون الشعوب، أليس الرق هو ذلك الذى يتسم بخنق الحرية الشخصية، واستعباد القدرات، وامتصاص الخيرات، والتحكم فى المصير وفرض النفوذ بالجبروت، وهذا ما نلاحظه فى الأمم المستعمرة فى عصرنا يسخرون أبناء الأمم المستعمرة فى حروب لا فائدة لهم فيها إلا الإبادة والتشريد، ألا يعتبر امتهان الجنس الأسود فى أمريكا نوعاً من الاستعباد؟ وتسلط الحكومات العنصرية فى جنوب أفريقيا وغيرها أكثر أنواع الرق عبودية ومسخاً؟ وأيهما أكثر عنفاً أن يسلب فرد فى حريته أم يشرد شعب بكامله ويحرم من وطنه ليتشتت فى الآفاق محروماً من كثير من القدرات المالكة كشعب فلسطين؟ وإن كان الرق ظلماً وامتهاناً فإن الظلم الذى وجه إلى عرب فلسطين ويوجه هذه الأيام إلى شعب العراق من أقوى دولة فى العالم لم يعادله ظلم فى القديم

والحديث.

وعلى كل حال فإن العرب فى ذلك العصر كانوا - كما سبق البيان - أهل حضر وهؤلاء قلة، وأهل بادية وهم الكثرة.

أما الحضر، فكانوا يعيشون فى بيوت مبنية مستقرة، ويعملون فى التجارة وبعض الزراعة والصناعة، ويحيون حياة استقرار فى المدن والقرى، ومن أولئك الحضر سكان مدن الحجاز: مكة ويثرب والطائف، وسكان مدن اليمن كصنعاء، وكثيرون من رعايا مملكة المناذرة فى الحيرة ومملكة الغساسنة فى الشام.

ومن أشهر حضر الجاهلية سكان مكة. وهم قريش وأحلافها وعبيدها، وكانت قوافلهم التجارية آمنة محترمة، لأن الناس يحتاجون إلى خدمات قريش فى أثناء الحج. ولهذا ازدهرت تجارة قريش. وكانت لها رحلتان تجاريتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام. وقد ذكر ذلك فى القرآن الكريم.

وأما أهل البادية أو أهل الوبر، فكانت حياتهم حياة ترحال وراء منابت العشب، لأنهم يعيشون على ما تنتجه أنعامهم، فيأكلون من لحومها ومما تخرجه ضروعها، ويلبسون من أصوافها وأشعارها وأوبارها، وكانوا يحتقرون الصناعة ، ويتعصبون للقبيلة ظالمة أو مظلومة.

وبسبب الجدب الضارب أطنابه لم يكن هناك من الموارد ما يكفى لإنعاش هؤلاء البدو، وتوفير عيشة هنيئة لهم جميعاً؛ لذلك انتشر الفقر والبؤس فيهم، ولم يكن فيهم من الأغنياء إلا قلة، وكانت الغالبية فقراء مدقعين، ومن هنا شاع السلب والنهب وقطع الطرق خصوصاً فى متاهات الصحراء الواسعة

وبين مرتفعاتها ومنحدراتها ومنحنياتها، حيث تضل الطريق وتعمى السبل حتى على كثير ممن لديهم خبرة بطرقاتها ودروبها. ومن ثم وجدت جماعة الصعاليك، وانتشر قطاع الطرق، وكثرت الغارات، وكان الأمن معدوماً، والقوة فقط هى صاحبة السيادة والسلطان.

هذا عن طبقات الناس واختلافها فى العصر الجاهلى. أما الأبنية والعمران، فكان منها فى المدن والقرى بيوت ودور مبنية من أحجار الجبال، يسكنها أصحابها فى الوقت الذى يسكن فيه البدو الخيام.

وإذا كان العرب قد اختاروا الشعر لتخليد مآثرهم فى جاهليتهم، فقد تأثروا بالعجم منذ زمن بعيد إذ قلدوهم فى تخليد المآثر بالبنيان أيضاً. يقول الجاحظ فى ذلك: «وكانت العرب فى جاهليتها تحتال فى تخليدها بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى، وكان ذلك هو ديوانها.. ثم إن العرب أحبت أن تشارك العجم فى البناء وتتفرد بالشعر فبنوا غمدان، وكعبة نجران، وقصر شعوب، والأبلق الفرد... وغير ذلك من البنيان»[1].

وللجاحظ ملاحظة طريفة يبين فيها كيف أن ملوك العرب فى جاهليتهم يستوون مع ملوك العجم فى طمس آثار أسلافهم، ويبدو أن الأمم القديمة كان شأنها ذلك فقد شاع هذا الأمر بين ملوك مصر القديمة، يقول الجاحظ فى ذلك مشيراً إلى ما هدمه عثمان بن عفان رضى الله عنه من آثار قديمة: "لأن من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم، وأن يميتوا ذكر أعدائهم فقد هدموا بذلك السبب أكثر المدن وأكثر الحصون، وكذلك كانوا أيام العجم وأيام الجاهلية، وعلى ذلك هم فى أيام الاسلام، كما هدم عثمان صومعة غمدان،

(١) الحيوان: ٧٢/١ مكتبة الخانجى ١٩٦٨م.

وكما هدم الآطام التى كانت بالمدينة»[١].

وقد تردد كثيراً ذكر المبانى القديمة وآثار العرب فى جاهليتهم فى كثير من المصادر الأدبية، كما رأينا فى مؤلفات الجاحظ، وكما نجد فى مصادر أدبية أخرى كثيرة تهتم بتحديد أماكن هذه الآثار ووصف بنائها، وتسرد شيئاً من تاريخها. وقد ذكر حصن الحضر الذى كان مبنياً بالرخام وكان يسكنه ملوك الضيازن، وهو يقع بين دجلة والفرات بناحية تكريت، ويقال إن بانيه الساطرون[٢]. ويصفه عدى بن زيد العبادى شاعر الحيرة فيدقق فى طريقة بنائه ووصفه فيقول:

وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجلة تجبى إليه والخابور
شاده مرمرا وكلله كلا فالطير فى ذراه وكور
لم يهبه ريب المنون فباد الملك عنه فبابه مهجور[٣]

أما الأعشى فهو يحكى القصة المأساوية لصاحبه وكيف آل إلى الهلاك بعد أن كان يتقلب فى النعمة فيقول:

ألم تر الحضر اذ أهله بنعمى وهل خالد من نعم

أقام به شاهبو الجنود حولين تضرب فيه القدم
فلما رأى ربه فعله أتاه طروقا فلم ينتقم
وكان دعا رهطه دعوة هلم إلى أمركم قد صرم
فموتوا كراما بأسيافكم وللموت يجشمه من جشم

(١) الحيوان ٧٣/١.
(٢) نهاية الأرب ١: ٣٨١ ط دار الكتب المصرية ١٩٣١م.
(٣) انظر ديوانه: ١١٢ «والحضر تكون بفتح الحاء وتسكين الضاد».

وللمــوت خــير لمــن نالــه        إذا المــرء أمتــه لــم تــدم[١]

كما تذكر فى جملة المبانى القليس وهى كنيسة كانت باليمن بناها أبرهة بن الصباح ملك اليمن بصنعاء كما يقول النويرى، ونقل إليها الرخام المجزع والملون والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس[٢].

ويذكر الأعشى كعبة نجران التى كانت باقية حتى هذا الوقت المتأخر قرب ظهور الاسلام، والتى كان يفد الأعشى على أربابها من أمثال يزيد بن عبد المدان وعبد المسيح وقيس بن الحصين، فهو يقول:

وكعبــة نجــران حتــم عليــك حتــى تنــاخى بأبوابهــا
تــزور يزيــد وعبــد المســيح وقيســا هــم خــير أربابهــا
إذا الحــبرات تلــوت بهــم        وجــروا أســافل هدابهــا
لهــم مشــربات لهــا بهجــة        تــروق العيــون بتعجابهــا[٣]

وتتحدث المصادر الأدبية عن الخورنق والسدير، أما الخورنق فكان على بعد ثلاثة أميال من الحيرة، وأما السدير ففى برية بالقرب منه، كان النعمان بن امرئ القيس – وهو النعمان الأكبر – قد بناهما، ويقال ان الخورنق تعريب خورنقاه وهو الموضع الذى يؤكل فيه ويشرب، والسدير تعريب سادل أى قبة فى ثلاث قباب متداخلة[٤].

ويقول الأسود بن يعفر الشاعر الجاهلى فى ذكر الخورنق والسدير وأصحابهما وما كانوا فيه من نعمة وجاه:

---

(١) ديوان الأعشى: ٤٣.
(٢) نهاية الأرب ١: ٣٨١.
(٣) ديوان الأعشى: ١٧٣.
(٤) نهاية الأرب ١: ٣٨٦.

ماذا اؤمل بعد آل محرق — تركوا منازلهم وبعد اياد
أهل الخورنق والسدير وبارق — والقصر ذى الشرفات من سنداد
أرضا تخيرها لدرا أبيهم — كعب بن مامة وابن أم دؤاد
جرت الرياح على مكان ديارهم — فكأنما كانوا على ميعاد
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة — فى ظل ملك ثابت الأوتاد
نزلوا بأنقرة يسيل عليهم — ماء الفرات يجئ من أطواد[(١)]

وتتحدث بعض المصادر العربية عن «الغريان»[(٢)] وهما اسطوانتان كانتا بظاهر الكوفة بناهما النعمان بن المنذر بن ماء السماء على جاريتين كانتا قينتين تغنيان بين يديه فماتتا فأمر بدفنهما وبنى عليهما الغريين[(٣)].

ويذكر الأعشى كثيرا من الآثار القديمة فى شعره فهو يتحدث عن قصر قديم فى اليمن فى ظفار يقال له ريمان (وربما غيمان) فيقول مشيراً إلى غزو الفرس والحبش لليمن:

يا من يرى ريمان أمسى خاويا خربا كعابه
أمس الثعالب أهله — بعد الذين هم مآبه
من سوقة حكم ومن — ملك يعد له ثوابه
بكرت عليه الفرس بعد الحبش حتى هد بابه[(٤)].

ويقول فى الأبلق الفرد الذى كان موجودا بتيماء والذى تشيع الأخبار بأن بانيه

(١) المفضليات: ٢١٧ نشر دار المعارف بتحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون وسنداد نهر أسفل الحيرة، أما كعب بن مامة فهو أحد أجواد العرب المشهورين، وابن أم دؤاد يعنى به أبا دؤاد الايادى الشاعر الجاهلى، وأنقرة بلد بالحيرة بالقرب من الشام.
(٢) هكذا تذكر فى المصادر ولكن يتضح من الوصف أن الكلمة مثنى.
(٣) نهاية الأرب ١: ٣٨٦.
(٤) ديوان الأعشى: ٣٨٩.

هو سليمان بن داود عليه السلام، وقد فصل الأعشى فى وصف مبناه فقال:

فما أنت إن دامت عليك بخالد ... كما لم يخلد قبل ساسا ومورق[(١)]
وكسرى شهنشاه الذى سار ملكه ... له ما اشتهى راح عقيق وزنبق
ولا عاديا لم يمنع الموت ماله ... وحصن بتيماء اليهودى أبلق
بناه سليمان بن داود حقبة ... له أزج عال وطى موثق
يوازى كبيداء السماء ودونه ... بلاط ودارات وكلس وخندق
له درمك فى رأسه ومشارب ... ومسك وريحان وراح تصفق
وجور كأمثال الدمى ومناصف ... وقدر وطباخ وصاع وديسق[(٢)]

كذلك يصف الأعشى سد مأرب وما كان عليه من منعة وما يفيضه من خير قبل أن يكتسحه سيل العرم فيقول:

ففى ذاك للمؤتسى أسوة ... ومأرب قضى عليها العرم
رخام بنته لهم حمير ... إذا جاءه ماؤهم لم يرم
فأروى الزروع وأعنابها ... على سعة ماؤهم إذ قسم
فعاشوا بذلك فى غبطة ... فجار بهم جارف منهزم
فطار القيول وقيلاتها ... بيهماء فيها سراب يطم
فطاروا سراعا وما يقدرون منه لشرب صبى فطم[(٣)]

ولم تكن الأبنية المشهورة التى أقامها الملوك هى وحدها القائمة فى الجريرة العربية، بل كانت هناك أبنية أخرى ضخمة من الحجارة أقامها أفراد عاديون ذوو يسار وإن لم يكونوا ملوكا، فهذا هو الشاعر الجاهلى راشد بن

---

(١) يقصد ساسان ملك الفرس ويقصد بمورق ملك الروم.
(٢) ديوان الأعشى: ٢١٧ والمناصف الخدام، والديسق خوان من فضة والأزج ضرب من الأبنية يبنى طولا والدرمك البناء الأملس والمشارب غرف يشربون فيها.
(٣) السابق: ٤٣.

شهاب اليشكرى يفخر بالقصر الذى بناه فى البحرين فيقول:

بنيت بثاج مجدلا من حجارة لأجعله عزا على رغم من رغم
أشم طوالا يدحض الطير دونه له جندل مما أعدت له إرم
ويأوى إليه المستجير من الردى ويأوى إليه المستعيض من العدم(١)

ولقد كان من البدهى أن يكون فى بلاط المناذرة والغساسنة الذين مر ذكرهم مظاهر الأبهة والعظمة، فلهم قصورهم ولهم ما يدور فى هذه القصور ويتجلى من تلك المظاهر.

ويصف الأعشى حياة القصور وصفاً يدل على ما كانت فيه من مستوى حضارى رفيع فى أدواتها وأبنيتها فهو يصف الإماء بأنهن يختلن فى أكسية الحرير مختلفة الألوان، وأنه كان يشرب الخمر فى الكؤوس، ويأكل فى آنية الفضة، يقول:

والبغايا يركضن أكسية الاضريج والشرعبى ذا الأذيال
والمكاكيك والصحاف من الفضة والضامرات تحت الرجال(٢)

ويقول ان ممدوحه يهب الندامى الجوارى المغنيات فى ثيابهن المهفهفة من الحرير والكتان:

هو الواهب المسمعات الشروب بين الحرير وبين الكتن(٣)

ويصف محبوبته فنرى امرأة متحضرة تلبس الحرير والأساور المطعمة بالأحجار الكريمة، يقول:

(١) المفضليات: ٣٠٩ وثاج قرية بالبحرين والمجدل هو القصر.
(٢) ديوان الأعشى: ٩.
(٣) السابق: ٢١.

تـــرى الخـــز تلبســـه ظـــاهرا وتبطـن مـــن دون ذاك الحريـــرا
إذا قلـــدت معصمـــا يـــارقين فصـــل بـــالدر فصـــلاً نضـــيرا
وجـــل زبرجـــدة فوقـــه وياقوتـــة خلـــت شـــيئاً نكـــيرا
فـــألوت بـــه طـــار منـــك الفـــؤاد وألفيـــت حـــيران أو مســـتحيرا[١]

ويحكى لنا حسان بن ثابت عن مجلس جبلة بن الأيهم فى الجاهلية فيقول: إنه رأى فيه عشر قيان: خمس منهن يغنين بالرومية على برابط، والخمس الأخريات يغنين غناء أهل الحيرة. ويذكر أن اياس بن قبيصة الطائى كان قد أهدى هؤلاء الجوارى إلى جبلة[٢].

ويصور لنا الأعشى الحانة التى كان يغشاها وقد تناثرت فيها قضب الريحان وهى تموج بالنساء السمينات يجررن ذيول الريط رافلات وقد نشطت القيان للغناء على نغمات العود وجرس الصنج بينما يدور على الشاربين ساق نشيط فى أذنه لؤلؤتان:

نـازعتهم قضـب الريحـان متكئـا وقهـوة مـزة راووقهـا خضـل
يسعى بهـا ذو زجاجـات لـه نطـف مقلـص أسـفل السـربال معتمـل
ومستجيب تخـال الصنـج يسـمعه إذا ترجـع فيـه القينـة الفضـل[٣]

غير أننا نلاحظ دائما أن الخمار علج غير عربى فالأعشى يقول:

تتخلهـا مـن بكـار القطـاف أزيـرق آمـن اكسـادها[٤]

وغالبا ما يكون الخمار يهوديا يأتى بالخمر من بلاد العجم، يقول:

---

(١) السابق: ٩٠.
(٢) الأغانى: ١٤/١٦.
(٣) ديوان الأعشى: ٥٩.
(٤) السابق ٦٩.

المرقش الأصغر:

سباها رجال من يهود تباعدوا لجيلان يدينها من السوق مربح[١]

أما الجوارى فكن أعجميات ينتمين لحنسيات مختلفة، فالأعشى يذكر التركيات والكابليات فى قوله:

ولقد شربت الخمر تركض حولنا ترك وكابل[٢]

وإذا كانت العادة قد جرت فى الحديث عن المظهر الاجتماعى لأية أمة ألا يغفل إبراز مكانة المرأة فى هذه الأمة، فإننا نذكر عن هذه النقطة أن نساء الجاهلية كن فى القبيلة كما كان الرجل، منهن من طبقة السادة ومنهن من طبقة العبيد وطبقة الجوارى وكانت الحرائر منهن يعشن فى الخدور ولا يبدين من زينتهن للأجنبى. أما الإماء فكان يتخذ منهن الفتيات، وذلك جريا على عادتهم من تسلط الأقوياء على الضعفاء. ولم يكن فى مجتمعهم الجاهلى شئ أشد على نفوسهم ولا أقبح فى تصورهم من سبى نسائهم فى الغارات والحروب.

ولقد كانت المرأة فى ظل النظام القبلى تتمتع بقسط وافر من الحرية، فكانت تستشار فى مهام الأمور، بل تشارك الرجل فى كثير من أعماله، كما كانت علاقتها بزوجها على درجة من الرقى أكثر مما يخيل إلينا. يدلك على ذلك افتخار الرجل بنسبه لأمه، كما يفخر بنسبه لأبيه، وإعطاؤهم المرأة قسطها مما يجب من النسيب إذا بدأوا قصائدهم التى يفخرون فيها بمحامد قومهم وعظيم فعالهم.

(١) المفضليات: ٢٤٢.
(٢) ديوان الأعشى: ٣٤٧.

وقد اشتهرت بعض النساء بالرأى السديد، ويكفى التدليل على هذا بلقيس ملكة سبأ التى قص القرآن رأيها فى التعامل مع سليمان عليه السلام. ونسب بعض ملوك العرب إلى أمهاتهم كعمرو بن هند، والمنذر بن ماء السماء.

ولم يقفوا عند جمالها الجسدى، فقد فطنوا إلى جمالها المعنوى وما تتحلى به من شيم وخصال كريمة، على نحو ما يقول الشنفرى فى زوجته أميمة[1]:

لقد أعجبتنى لا سقوطا قناعها ... إذا ما مشت ولا بذات تلفت
تبيت – بعيد النوم – تهدى غبوقها ... لجاراتها إذا الهدية قلت[2]
تحل بمنجاة من اللوم بيتها ... إذا ما بيوت بالمذمة حلت
كأن لها فى الأرض نسيا تقصه ... على أمها وإن تكلمك تبلت[3]
أميمة لا يخزى نثاها حليلها ... إذا ذكر النسوان عفت وجلت[4]
إذا هو أمسى آب قرة عينه ... مآب السعيد لم يسل أين ظلت[5]

فصاحبته وقور خجول، لا يسقط قناعها فى أثناء سيرها ولا تلتفت حولها، وهى كريمة مؤثرة تؤثر جارتها فى الجدب بغبوق اللبن، وقد حصنت بيتها عن كل لوم أو ذم يلحقها، وهى شديدة الحياء، ومن أجل ذلك لا ترفع رأسها عن الأرض فى مسيرها، حتى ليظن من يبصرها أنها تبحث عن شئ

(١) المفضليات رقم ٢٠.
(٢) الغبوق: اللبن الذى يشرب فى العشى.
(٣) النسى: الشئ المنسى أو المفقود، تقصه: تتعقب أثره، أمها بفتح الهمزة: قصدها. تبلت: أوجزت.
(٤) النثا: الحديث عن الشخص، الحليل: الزوج.
(٥) آب: رجع.

ضاع منها. وإذا اعترضها شخص وكلمها أوجزت ومضت لقصدها وغرضها. وإن الحديث العطر عنها فى العشيرة ليملأ زوجها زهواً وخيلاء، إنها مثال العفة والجلال. وإنه ليرفعها عن كل شك وتهمة، فإذا أمسى وعاد إليها من المرعى أو بعد رحلته الطويلة عاد قرير العين بها سعيدا، فلا يسألها أين كانت لأنها موضع ثقته.

وكتب الأدب القديمة مليئة بالقصص والأشعار التى تصور هيام العرب الجاهليين بالمرأة وانعكاس ذلك على أشعارهم إلى الحد الذى جعلهم يستهلون هذه الأشعار بذكر المرأة، وما للشاعر معها من ذكريات فى بعض المعاهد والمنازل، وكانوا يمزجون ذلك بالدموع على نحو ما نرى فى مقدمة معلقة امرئ القيس المشهورة.

ومع ما كان يستقبل به ميلاد البنت من ضيق وحزن، كان للكثيرات منهن حرية اختيار الزوج. وحماية المستجير، والشفاعة للمستشفع على نحو ما كان من موقف الخنساء فى اختيار زوجها ورفضها دريدا بن الصمة[1]، وما كان من فكيهة إذ ردت إلى السليك بن السلكة حريته حين وقع أسيرا فى يد عشيرتها من بنى عوار[2].

ولقد بلغ من تقديرهم للمرأة أن كانت شغلهم الشاغل فى حياتهم ، ومن أجلها يحاربون، خوفا عليها من السبى أو استنقاذا لها منه، ولذلك كانوا يصحبون النساء فى حروبهم يحمسنهم ويشددن من عزائمهم، ويدفعن بهم إلى

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ١٣ وما بعدها طبع الساسى.
(٢) الأغانى جـ ١٨ ص ٣٧ طبع الساسى.

التضحية والإقدام خوفاً عليهن من أن يمسهن أذى أو يخدش حياؤهن. وقامت النساء بدور فعال فى إشعال نار الحرب - فى كثير من الأحياء - وعملن على إلهاب الحماس كلما خبا أو فتر، وكن يغضبن إذا قبلت العشيرة أخذ الدية حقنا للدماء، فإذا قتل فارس أقبلن عليه ينعينه ويبكينه مستثيرات حماس الأحياء حتى يثأروا له، ومن الأسماء التى لا تنسى فى مثل هذه المواقف الخنساء وشعرها فى بكاء أخويها صخر ومعاوية، وكبشة أخت عمرو بن معد يكرب التى قالت حين قتل أخ لها:

فإن أنتم لم تثأروا واتديتم فمشوا بآذان النعام المصلم[1]

وأم عمرو بنت وقدان التى تقول حين قتل أخوها وفكرت عشيرتها فى قبول ديته:

إن أنتم لم تطلبوا بأخيكم فذروا السلاح ووحشوا بالأبرق
وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا نقب النساء فبئس رهط المرهق[2]

وبالمرأة يفتنون فتنطلق ألسنتهم معبرة عن أثرهن فى النفوس، واصفة جمالهن وجمال أزيائهن ، مبينة مركزهن الاجتماعى، كما نرى فى قول امرئ القيس:

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل[3]

فهى كريمة شريفة، ينثر فوق فراشها المسك، ولا تنهض من نومها فى البكور لأنها مخدومة.

---

(١) الأغانى: ١٣/١٠ طبع الساسى.
(٢) السابق: ٣٧/١٨.
(٣) البيت من معلقته المعروفة.

وكما نرى فى وصف المنخل اليشكرى:

الكـــاعب الحســـناء تـــر فـل فـى الدمقـس وفـى الحريـر

وقد وصلت مكانة المرأة الجاهلية إلى الحد الذى كانت فيه بعضهن يمتلكن المال، ويتصرفن فيه كما يردن، وفى قصة اتجار الرسول عليه السلام – قبل مبعثه – فى أموال السيدة خديجة أم المؤمنين دليل على هذا.

فالمرأة فى الجاهلية لم تكن مهملة، وإنما كان لها وزنها عندهم، وكان لها – كما سبق القول – كثير من مظاهر التقدير والعناية والحرية. وقد دعم الإسلام هذه الحرية، فحرم أن تعضل المرأة وتمنع من الزواج بعد وفاة زوجها كما حرم زواج المقت، وهو أن يجمع الرجل بين أختين، وحرم الشغار، وهو أن يتزوج شخص أخت صديق له على أن يزوجه أخته، وأيضاً فإنه حرم أن يتزوج الابن امرأة أبيه بعد موته أو أن يتزوج عدة رجال امرأة واحدة، إلى غير ذلك مما كانوا يبيحونه. وتلك كانت عادات عندهم، وهى تلازم الأمم فى عصور بداوتها، ولكن ينبغى أن لا نفهم منها أن المرأة كانت مهدرة الحقوق فى الجاهلية، أما ما سجله عليهم القرآن الكريم من وأدهم للبنات فى قوله تعالى: (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون) فأكبر الظن أن من كانوا يصنعون ذلك منهم أجلاف قساة القلوب كانوا يخشون عليهن من الفقر أو السبى، إذ كان سباؤهن كثيراً فى الجاهلية، وكانوا يعدون ذلك سبة ما بعدها سبة.

ولقد كان النظام القبلى – كما سبق القول – هو النظام السائد فى المجتمع، وكان لكل قبيلة دستورها غير المكتوب الذى يحكم سلوك أفرادها

سادة وعبيداً، كما كان لمجموعة القبائل كذلك دستورها غير المكتوب الذى يجب أن تحتكم إليه وتلتزم بمبادئه.

وما كان هذا الدستور الذى ينظم العلاقة بين أفراد القبيلة من جهة، وبين القبيلة وغيرها من القبائل من جهة أخرى إلا مجموعة من الخلال والخصال والأخلاق، فرضتها عليهم ظروف المعيشة فى الصحراء القفرة الموحشة، فأصبح على كل فرد أن يرعى هذه الخلائق فى سلوكه، ويدعو إليها، ويقيم عليها أبناءه، حتى أصبحت جزءاً من الكيان العربى مثل الكرم، والوفاء، والمروءة وحماية الجار، والنجدة، والحلم.. إلى غير ذلك من الخلال الكريمة التى فرضتها عليهم حياتهم فى الصحراء المجدبة القاسية المخيفة بما فيها وما تحمل من مفاجآت، وكان من أهم مفاخر القبيلة أو الفرد فيها اشتهاره بخصلة من تلك الخصال، ولذلك راحوا يتسابقون فى إذاعة هذه المكارم والمحامد سعيا وراء المجد والرفعة.

وقد استنوا فى مسالكهم الخلقية سننا تباروا من خلالها فى السبق والتميز، فأوقدوا النار ليلاً على المرتفعات ليهتدى الضال إليهم وينزل بهم، على نحو ما يذكر حاتم الطائى أحد من اشتهروا بالكرم مخاطباً غلامه:

أوقد فإن الليل ليل قر والريح يا غلام ريح صر
عل يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفا فأنت حر

وإذا كانوا يعتزون بتلك الصفات ويتفاخرون بها، فإنهم كانوا يأبون الهوان والضيم وينكرونهما أشد الإنكار، فهما يعنيان أن القبيلة قد هان شأنها وأصبحت من الضعف لدرجة أنها لم تعد قادرة على الذود عن حماها والدفاع عن كرامتها. وتلك السوأة الكبرى؛ ولذلك فما كان يهيج القبيلة أو الواحد من

أفرادها شئ مثل شعوره بأن شيئا من ذلك يمسه، ومن ثم تغنوا بالشجاعة والفروسية والإقدام على الأهوال فى غير تردد ولا خوف.

ولقد ترتب على رفض العربى الجاهلى للضعف واعتداده بالقوة: سعيه للتوسل إليها بكل أسبابها من عدة وعتاد، فكان يطلب الكثرة فى المال والولد، وكان يحشد فى مسكنه ما يمكنه من السيوف والرماح والخيل والسهام، وكان يطلب الغنى والثروة ولو بالغلبة والغزو وقطع الطريق وفرض المكوس والضرائب والعطايا على القوافل التجارية التى تجوب شبه الجزيرة العربية صيفا وشتاء ولهذا مدحوا الغنى وذموا الفقر لما فى نظرة المجتمع إليه من مذلة واحتقار يعرضه للأذى والضعف، ويصيبه بالشر ويحمل عليه النكبات.

يقول عروى بن الورد مصوراً الموقف العربى من الغنى والفقر:

دعينى للغنى أسعى فإنى
رأيت الناس شرهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهم
وإن أمسى له كرم وفير
ويقصيه الدنى، وتزدريه
خليلته، وينهره الصغير
ويلقى ذو الغنى وله جلال
يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب جم
ولكن للغنى رب غفور

ويتصل بمفهوم القوة عند العرب الجاهليين قيمة أخرى هامة كان لها ثقلها فى واقع الحياة العربية، وهى شهوة الطمع ورغبة الاعتداء وذلك راجع

بطبيعة الحال إلى التنافس بين القبائل للحصول على الموارد القليلة للرزق فى هذه الصحراء القاسية، فكانت كل قبيلة تتوقع غارات القبائل الأخرى عليها وتستعد لذلك، كما كانت تعد العدة للإغارة على القبائل الأخرى طمعاً واستزادة.

فرغبة الاعتداء وما يتصل بها لم تكن عند العربى نقيصة، وإنما كانت قيمة يفتخر بها.

يقول الفند الزمانى فى هذا المعنى:

وبغض الحلم عند الجهل
للذلة إذعان
وفى الشر نجاة حين
لا ينجيك إنسان

أما إذا حدث الاعتداء والطمع على قبيلة بينها وبين القبيلة المعتدية حلف أو ولاء، فهذا هو الغدر وعدم الوفاء:

قتلوا ابن اختهموا وجار بيوتهم
من حينهم وسفاهة الألباب
غدرت جذيمة غير أنى لم أكن
أبدا لأولف غدوة أثوابى

واعتداد الجاهليين بالقوة هو الذى جعل بعض شعرائهم يتغنى بها أو يعير الآخرين بالضعف، حتى وإن كان عن حلم، مثال التغنى بها قول سعد بن ناشب من قصيدته لا مرأته:

وفى اللين ضعف، والشراسة هيبة ومن لم يهب يحمل على مركب وعر

ومثال التعيير بالضعف قول قريط بن آنف عن قومه حين اختاروا السلم مذهباً لهم بعد أن هجمت جماعة من بنى ذهل بن شيبان على إبل لقريط:

لو كنت من مازن لم تستبح أبلى
بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذاً لقام بنصرى معشر خشن
عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم
طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين ينديهم
فى النائبات على ما قال برهانا
لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد
ليسوا من الشر فى شئ وإن هانا

وقد ترتب على مفهوم العرب الجاهليين للقوة وما اتصل بها من تقاليد وأعراف اجتماعية أن اشتهرت عنهم مجموعة من الصفات الخلقية لعل أشهرها الشجاعة والكرم، وهما صفتان مرتبطتان عند العرب برفعة النسب والسلالة، تلك الرفعة التى تستلزم من صاحبها أن يكون كريم الفعل أى سخياً، كما هو كريم السلالة أى رفيعها.

يقول السموأل:

صفونا فلم نكدر وأخلص سرنا
إناث أطابت حملنا وفحول
علونا إلى خير الظهور وحطنا
لوقت إلى خير البطون نزول

فنحـن كمـاء المـزن مـا فـى نصابنـا
كهـــام ولا فينـــا يعـــد بخيـــل

ويقول عوف بن الأحوص[١]:

ومســتنبح يخشــى القــواء ودونــه — مـن الليل بابا ظلمـة وسـتورها[٢]
رفعت لـه نـارى فلمـا اهتـدى بهـا — زجرت كلابى أن يهـر عقورها[٣]
فـلا تسـألينى واسـألى عـن خليقتـى — إذا رد عافى القدر من يستعيرها[٤]
تـرى أن قـدرى لا تـزال كأنهـا — لذى الفروة المقرور أم يزورها[٥]
مـبرزة لا يجعـل السـتر دونهـا — إذا أخمد النـيران لاح بشـيرها[٦]
إذا الشوال راحت ثم لم تفد لحمها — بألبانهـا ذاق السـنان عقيرهـا[٧]

واشتهر عندهـم بـالكرم الفيـاض كثيرون[٨]، مثـل حـاتم الطـائى الـذى ضربت الأمثال بكرمه، وهو يصوره فى كثير من شعره كقوله[٩]:

إذا مـا بخيـل النـاس هـرت كلابــه — وشق على الضيف الغريب عقورهـا
فـإنى جبـان الكلـب بيتـى موطـأ — جـواد إذا مـا النفس شـح ضميرهـا

وربما كان السـبب فـى إيجـاد ذلـك الكـرم الجـاهلى، كمـا يـرى بعـض

---

(١) المفضليات رقم ٣٦ والحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ١٣٦/٥.
(٢) مستنبح: من ينبح حتى ترد عليه الكلاب، فيعرف أن حيا قريباً منه، القواء: الفلاة...
(٣) يهر: ينبح نبحاً خفيفاً، العقور: العاض.
(٤) عافى القدر: مستعيرها.
(٥) ذو الفروة: السائل، المقرور: الذى اشتد به البرد.
(٦) بشيرها هنا: ضوؤها.
(٧) الشول: الإبل العظيمة التى لا تحلب، راحت: رجعت، يقول إذا رجعت الإبل من مراعيها عقرها لأهل الحى والضيفان.
(٨) انظر فى أجواد الجاهلية كتاب المحبر لابن حبيب (طبع حيدر آباد) ص ١٣٧.
(٩) الحيوان ٣٨٣/١.

الباحثين[١] وإحلاله منزلته العالية فى قائمة فضائلهم الاجتماعية كان أمراً اقتصادياً، فتلك الحياة البدوية المنتقلة كانت مهددة دائماً فى أساس رزقها وهو ماء المطر الذى قد ينقطع سنة أو سنين متعاقبة عن أراضى القبيلة. فما من قوم أغنياء إلا وهم عرضة لأن يصيروا فقراء فى أشد الحاجة إذا أصابتهم السنة أى القحط. والذين يقوم معظم ثرائهم على إرشاد القوافل وضمان سلامتها لا يأمنون أن تتحول طرقها عن أراضيهم، وقد تحولت مراراً عديدة فى تاريخ ما قبل الإسلام. لذلك فقد اهتدى الجاهليون إلى الكرم كوسيلة للاحتياط عن التقلب وتخفيف أسوأ عواقبه، فهو نوع من ضمان المستقبل أو التأمين الاجتماعى.

وكانوا لا يقدرون شيئاً كما يقدرون الوفاء، فإذا وعد أحدهم وعداً أوفى به وأوفت معه قبيلته بما وعد، ومن ثم أشادوا بحماية الجار لأنه استجاربهم وأعطوه عهداً أن ينصروه. وجعلهم ذلك يعظمون الأحلاف فلا ينقضونها مهما قاسوا بسببها من حروب. وبلغ من اعتدادهم بهذه الخصلة أنهم كانوا يرفعون لمن يغدر منهم لواء فى مجامعهم وأسواقهم، حتى يلحقوا به عار الأبد. يقول الحادرة لصاحبته سمية[٢]:

أسمى – ويحك – هل سمعت بغدرة رفع اللواء لنا بها فى مجمع

وليس هناك خلة تؤكد معنى العزة والكرامة إلا تمدحوا بها، فهم يتمدحون بإغاثة الملهوف وحماية الضعيف والعفو عند المقدرة، كما يتمدحون بالأنفة وإباء الضيم، وكيف يقبلون الضيم، وهم أهل حرب وجلاد، يقول المتلمس[٣]:

(١) فى الأدب الجاهلى للدكتور السعيد الورقى: ص ٣٨، ٣٩.
(٢) المفضليات: ص ٤٥.
(٣) حماسة البحترى: ص ٢٠.

إن الهـوان حمـــار الأهــل يعرفـــه		والحـر ينكــره والرسـلة الأجـد[١]
ولا يقيـم علــى خســـف يــراد بــه		إلا الأذلان: عير الأهل والوتـد[٢]
هـذا علـى الخسـف معقـول برمتـه		وذا يشــج فـــلا يبكـــى لـــه أحـــد

فهم لا ينكرون شيئاً مثل إنكارهم للهوان والضيم، فهما السوأة الكـبرى والمثلبة العظمى إذ يعنيان الذل وأن القبيلة استبيحت فلم تعد تستطيع الدفـاع عن كرامتها. وكل شئ يهون عندهم إلا الهوان، وكان أقل شـعور بـه يثـيرهم، على نحو ما اشتهر من ثورة عمرو بن كلثوم على عمـرو بـن هند حين علـم بإهانة أمه فـى بلاطـه، وكـان نـازلاً معهـا عنـده، فاسـتل سيفه وقتلـه، وتغنـى شعراء تغلب طويلا بهذا الحادث مفاخرين بعزتهم. وكان للشجاعة والفروسـية عندهم منزلة ليس فوقها منزلة، بحكم حروبهم الدائرة التى لا تنى ولا تفتر.

وكان سادتهم يمثلون هذه الخصال جميعاً فى أقوى صورها، مضيفين إليها حنكة وحكمة بالغة، وقد اشتهر من بينهم حكام تجـاوزت ألمعيتهـم حـدود قبائلهم[٣]، مثل عامر بن الظرب وأكثم بن صيفى، وكـانت تفـزع إليهـم القبـائل فـى خلافاتهـا الكبيرة التـى يصعـب حلهـا فـى دائـرة قبـائلهم وشـيوخهم، وقـد يفزعون فيها إلى الكهنة والعرافين.

ولا تظنن أن المجتمع الجاهلى كان بهذه الصفات الكريمة مجتمعاً فـى أرقى صـور المثالية، بل كان هذا المجتمع مليئاً بالمتناقضات والعجـائب، فعلـى حين ترى فى أحد جوانبه كرماً وأريحية وإيثـاراً للغير علـى النفس وتضحيـة وفداء وإغاثة للملهوف وإجارة للمستجير وإجابة لداعى النجدة وطالب المعونة،

(١) الرسلة: الناقة الذلول، الأجد: الموثقة الخلق.
(٢) العير: الحمار.
(٣) انظر فى حكام العرب كتاب المحبر: ص ١٣٢.

ترى فى الجانب الآخر صورة مهولة من الوحشية فهناك استهانة فى قتل النفس لأبسط الأسباب وأتفهها فى نظر مدنيتنا الحديثة، وهناك السلب واغتصاب ما بيد الآخرين، وهناك تطاول الأقوياء على الضعفاء، واستغلال الأغنياء للفقراء، وهناك احتقار السادة للعبيد، وهناك المطل فى أداء الحقوق.

والعجب أن المغالاة الزائدة فى صفة من الصفات الكريمة قد أوجدت خصالاً ذميمة، فعلى سبيل المثال لو نظرنا إلى حب الفرد لقبيلته نجد أن حبه لقبيلته، وتفانيه فى إخلاصه لها، والعمل على رفع شأنها، وإعلاء كلمتها، وتعصبه لها وحدها، كل ذلك جعله يتجاهل غيرها، ولا يعترف بحق الحياة أو الملكية أو المتعة لأحد من سواها، كأنما لم يخلق فى الوجود غير قبيلته، فدفعه هذا الاعتقاد إلى الاعتداء على حقوق الآخرين، ما دام يملك القوة أو الفرصة المواتية، فكانت الغارات والحروب التى ينجم عنها إزهاق الأرواح، ونهب الأموال، وأسر الرجال، وسبى النساء مما يشيع الرهبة فى قلوب الآخرين، ويعلى من شأن المنتصرين، وينمى ثروتهم، بما غنموه من مال، أو كسبوه من فداء الأسرى والسبايا، أو احتلال أرضهم، ونزول ديارهم. وما كانوا يكفون عن الغارات والحروب إلا فى الأشهر الحرم. ولكن الحمية الجاهلية كانت تشتط بهم فيقاتلون فيها غير مبالين، كما كان فى حرب الفجار بين قريش وكنانة، أو يتخذون النسئ فيؤخرون الأشهر الحرام كما يشاءون. وإزهاق الأرواح، وإنزال الخسائر، وإحداث الهزائم، ما كانت لتقف عند حد، فالقبيلة المنهزمة، ومن حاقت بهم الخسائر، ما كانوا ليقفوا مكتوفى الأيدى، بل لابد أن ينتقموا لكرامتهم، ويردوا شرفهم، فكان لابد من الأخذ بالثأر، وكان الاعتقاد السائد أن روح القتيل كانت تخرج من قبره كل يوم فى صورة طائر يسمونه «الهامة» وتصيح قائلة: «اسقونى، اسقونى» ولا تكف عن الصياح

حتى يؤخذ بثأره. فكل معركة كانت تتبعها معركة بل معارك، وقد ساعد على انتشار هذه الفوضى، وشيوع الرعب وعدم الطمأنينة والأمن، عدم وجود حكومة مركزية يدين لها جميع القبائل بالولاء والطاعة، وتتولى نشر العدل بين الناس على السواء. وكان التعصب القبلى الأعمى يقوى من نيران العداوة والحروب، فالتزام الوقوف بجانب أى فرد من القبيلة فى جميع الأحوال، ظالماً كان أو مظلوماً، بصرف النظر عن مدى الحق فى موقفه، وبدون ترو أو تفكير فيما هو مقدم عليه، زاد الطين بلة، وأرث الأحقاد فى القلوب وعمل على توسيع الهوة بين القبائل، فأصبحوا متفككى الأوصال لا تجمعهم وحدة، ولم يكن لديهم شعور بفكرة نحو التجمع تحت لواء واحد.

وحبه لنفسه وعشيرته جعله يبالغ فى فهم معنى الشرف، فالعصبية الجنسية، والأثرة الواضحة فى حياتهم، وحب الظهور، والمبالغة فى معنى الإباء والعزة والشرف، أوجدت فيهم الحمية الجاهلية المشهورة عنهم، فكانوا يثورون لأتفه الأسباب، ويدخلون المعارك والحروب، ويزهقون الأرواح فى سرعة وتهور، دون أدنى تفكير لمجرد فهم قد يكون خطأ. فرب كلمة لا يريد قائلها بها شراً، أو نظرة عابرة غير مقصودة لإحدى فتيات العشيرة، تثير حرباً شعواء بين حين أو أحياء كثيرة لاعتقادهم أن شرف القبيلة قد مس، أو أن كرامتهم قد أهينت، وكانت النساء النقطة الحساسة فى شرفهم، ومن ثم أحاطوها بسياج متين من القيود والحدود حتى لا يقع لهن أدنى إساءة، وقد بلغ ببعضهم الخوف على شرف نسائهم إلى الحد الذى جعلهم يقدمون على وأد البنات حتى لا يحدث لهن ما يجلب عليهم العار.

فإسراف الجاهليين فى فهم المعانى الطيبة أوقعهم فى التخلق بصفات

غير محمودة جلبت عليهم المتاعب على النحو الذى شرحناه آنفاً، وعلى النحو الذى نراه فى عادة وأد البنات التى اندفع إليها بعضهم خشية العار والوقوع فى الرذائل. ومن هذا تعرف إلى أى حد كانت غاياتهم محمودة، وإلى أى حد كان سلوكهم قبيحاً فى علاج هذه المشاكل.

ولم تكن العادات والآفات والمفاسد التى ذكرناها سابقاً، هى الآفات الاجتماعية الوحيدة عندهم، وإنما وجدت معها آفات عديدة أخرى منها عادة تعاطى الخمر إلى حد الإدمان والانهماك، واستباحة النساء إلى حد استهلاك الأعراض، والإقبال على القمار والميسر قتلا للوقت وإتلافا للمال.

وإذا كان اعتزازهم بالفضائل فرضته عليهم ظروف مجتمعهم الصحراوى، فإن شيوع تلك الآفات فرضته عليهم كذلك ظروف هذا المجتمع، بما فيه من تفاوت كبيرة بين الطبقات وفراغ ممتد لا يجد فيه بعض الشباب والشيوخ ما يشغلون به وقتهم، وإغراء مقصود من بعض تجار المتعة المنتشرين فى مختلف القرى والحواضر، من بين اليهود والنصارى الوافدين من اليمن أو الروم.

ولقد استشرت تلك الموبقات حتى وجدت مقاومة من القبيلة حين يبالغ فيها بعض أبنائها، كما حدث مع البراض بن قيس الكنانى أحد أدلاء القوافل فى الجاهلية، فقد خلعه قومه وتبرأوا منه لما أدمن الخمر وأصبح سكيراً فاسقا[١]، ويقرر هذا قول طرفه فى معلقته:

وما زال تشرابى الخمور ولذتى ... وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى[٢]
إلى أن تحامتنى العشيرة كلها ... وأفردت إفراد البعير المعبد[٣]

---

(١) الأغانى جـ ١٩ ص ٧٥ طبعة الساسى.
(٢) الطريف: المال الحديث، والمتلد المال الموروث.
(٣) البعير المعبد: الأجرب.

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى    وجدك لم أحفل متى قام عودى[١]
فمنهن سبق العاذلات بشربة    كميت قمتى ما تعل بالماء تزبد[٢]
وكرى إذا نادى المضاف محنبا    كسيد الغضا نبهته المتورد[٣]
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب    ببهكنة تحت الجساء المعمد[٤]

فطرفة هنا يرى أن هذه الخصال الثلاث من أهم ما يمتع المرء فى حياته، ويجعل عيشته ذات قيمة، وبدونها يصبح الموت والحياة سوءا.

وكما سجل طرفه هذا المسلك سجل قيس بن عاصم المنقرى نفوره من الخمر وتحريمه إياها فى قوله:

لعمرك إن الخمر ما دمت شاربا    لسالبةٌ مالى ومذهبة عقلى
وتاركة بين الضيوف قراهم    وموزثة حرب الصديق بلا زمل

ويروى عن سبب تحريمه للخمر أنه سكر ليلة فغمز عكنة أخته فهربت منه، فلما صحا عنها قيل له: «أو ما علمت ما صنعت البارحة» قال لا فأخبروه، فحرم على نفسه الخمر وقال:

وجدت الخمر جامحة وفيها    خصال تفضح الرجل الكريما
فلا والله أشربها حياتى    ولا أدعو لها أبدا نديما
ولا أعطى بها ثمنا حياتى    ولا أشفى بها أبداً سقيما
فإن الخمر تفضح شاربيها    وتجشمهم بها أمراً عظيما
إذا دارت حمياها تعلت    طوالع تسفه الرجل الحكيما

(١) الجد: الحظ والبخت، العود جمع عائد أو عائدة: من يعودونه عند الوفاة ويبكونه.
(٢) الكميت: الخمر.
(٣) المضاف: الخائف المذعور، والمحنب: الفرس فى قوائمه أو ضلوعه انحناء قليل، والسيد: الذئب، والغضا شجر، نبهته: هيجته، المتورد: الجرئ، يعنى أنه إذا استغاث به خائف عطف فرسه الذى يسرع فى عدوه إسراع ذئب الغضا الجرئ حين تهيجه.
(٤) الدجن: الغيم، البهكنة: المرأة الجميلة، المعمد: المرفوع بالعماد.

ولا ريب أن في ذلك دلالة على أن الخمر لم تستهو جميع شباب الجاهلية ولا استهوت أيضاً جميع شيوخها وعقلائها من أمثال عامر بن الظرب الذي يقول في وصفها:

سآلة للفتى ما ليس في يده ذهابة بعقول القوم والمال
أقسمت بالله أسقيها وأشربها حتى يفرق ترب القبر أوصالي
تورث القوم أضغانا بلا إحن مزرية بالفتى ذي النجدة الحالي

ومن أمثال صفوان بن أمية الكناني الذي أقسم على نفسه ألا يشر بها طيلة حياته، ولا يشفي بها سقيما أبداً وذلك حيث يقول:

رأيت الخمر صالحة وفيها مناقب تفسد الرجل الكريما
فلا والله أشربها حياتي ولا أشفي بها أبدا سقيما

وقد ذكر أبو الفرج الأصبهاني أنه «ما من أحد من كبراء قريش في الجاهلية إلا ترك الخمر استحياء مما فيها من الدنس. ولقد عابها ابن جدعان قبل موته فقال:

شربت الخمر حتى قال قومي ألست عن السفاه بمستفيق
وحتى ما أوسد في مبيت أنام به سوى الترب السحيق
وحتى أغلق الحانوت رهني وآنست الهوان من الصديق

وكان سبب تركه الخمر أن أمية بن أبي الصلت شرب معه فأصبحت عين أمية مخضرة يخاف عليها الذهاب، فقال له: ما بال عينك؟ فسكت. فلما ألح عليه قال له: أنت صاحبها أصبتها البارحة. فقال: أو بلغ مني الشراب الحد الذي أبلغ معه من جليسي هذا؟ لا جرم لأدينها لك ديتين؛ فأعطاه عشرة آلاف

درهم، وقال: «الخمر على حرام أن أذوقها أبداً»، وتركها من يومئذ[١].

وذكر ابن قتيبة أن كثيراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حرموا الخمر على أنفسهم فى الجاهلية لعلمهم بسوء مصرعها وكثرة جناياتها. وقالت عائشة رضى الله عنها: «ما شرب أبو بكر خمراً فى جاهلية ولا إسلام» وقال عثمان رضى الله عنه: «ما تغنيت ولا تفتيت ولا شربت خمراً فى جاهلية ولا إسلام»[٢].

وربما حرموا الخمر تحريماً مؤقتاً فتجافوا عنها وعن النساء والطيب وذلك حين يملأ قلوبهم الموتورة الحقد على الأعداء، وطلب الثأر والانتقام. قال قيس بن الخطيم:

ومنا الذى آلى ثلاثين ليلة ... عن الخمر حتى زاركم بالكتائب
ولما هبطنا الحرث قال أميرنا ... حرام علينا الخمر ما لم نحارب
فسامحه منا رجال أعزة ... فما برحوا حتى أحلت لشارب

والملفت للنظر فى آفة الميسر التى شاعت فى هذا المجتمع أن الجاهليين كانوا يعدونها من مفاخرهم التى يمارسونها على وجه الخصوص فى أيام الشدة والقحط والجوع، وكثير من قصائد الفخر الجاهلية يحتل الميسر جزءاً بازراً فيها على النحو الذى لمسناه فى أبيات طرفة المتقدمة، وعلى النحو الذى نلمسه فى افتخار النابغة الذبيانى إذ يقول:

إنى أتمم أيسارى وأمنحهم ... مثنى الأيادى وأكسو الجفنة الأدما

وكان من الآفات الاجتماعية السيئة فى هذا المجتمع: عادة «النسيئ»

(١) الأغانى: (٨: ٣٣٢ دار الكتب).
(٢) الأشربة: ٢٧.

وهى عادة تتصل بمعتقداتهم الدينية، إذ كانوا يعظمون الأشهر الحرم الأربعة المعروفة، ويتحرجون فيها من القتال، وكانت بعض القبائل منهم يستبيحونها، فإذا قاتلوا فى شهر حرام حرموا مكانه شهراً من أشهر الحل، ويقولون: نسئ الشهر.

ولعل أول من نسأ الشهور على العرب هو سرير بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة، ثم من بعده ابن أخيه القلمس وهو عدى بن عامر بن ثعلبة ثم صار النسئ فى ولده إلى آخرهم وهو أبو ثمامة جنادة بن عوف. ويروى ابن هشام أن القلمس هو أول ناسئ، وفى صبح الأعشى أن أول من نسأ النسئ عمرو بن لحى وهو أبو خزاعة، ولقد أكثر الشعراء من بنى كنانة الافتخار بالنسأة من ذلك قول بعضهم: - ومنا ناسئ الشهر القلمس - وقال غيره:

نسئوا الشهور بها وكانوا أهلها من قبلكم والعز لم يتحول

وقال عمير بن قيس جذل الطعان الكنانى:

لقد علمت معد أن قومى كرام الناس إن لهم كراما
فأى الناس فاتونا بوتر وأى الناس لم تعلك لجاما
ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما؟!

وكان من عاداتهم إذا مات عزيز لديهم اجتماع النسوة من قريباته فى حلقه يندنبه ويرثينه ويلبسن السواد والصدار، معتقدات أنهن بذلك يصلن الرحم والرابطة القبلية المتينة. ولذلك لما جاء الإسلام بعد ذلك حرم النياحة على الميت بهذا الشكل المبالغ فيه إلى حد تقديس الفرد ولطم الخدود وشق الجيوب حزنا على موته.

ويروى أن الخنساء لم تكتف برثاء أخويها صخر ومعاوية شعراً، بل كانت تتمنى في شعرها هذا لو تستطيع قتل نفسها كمدا على أخيها صخر:

يذكرني طلوع الشمس صخرا ... وأذكره بكل مغيب شمس

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

ومن رثائها المشير إلى عادة الجاهليات في بكاء موتاهن قولها:

فقومي يا صفية في نساء ... بحر الشمس لا يبغين ظلا

يشققن الجيوب وكل وجه ... طفيف أن تصلى له وقلا

واستمرت الخنساء تلطم وجهها بالنعال وتحلق شعرها على أخيها إلى ما بعد الإسلام حتى رآها عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- تطوف بالبيت محلوقة الرأس تبكى وتلطم خدها وقد علقت نعل صخر في خمارها فوعظها فامتثلت وقالت(١):

هريقي من دموعي أو أفيقي ... وصبرا إن اطقت ولن تطيقي

وإني والبكا من بعد صخر ... كسالكة سوى قصد الطريق(٢)

فلا وأبيك ما سليت صدري ... بفاحشة أتيت ولا عقوق(٣)

ولكني وجدت الصبر خيرا ... من النعلين والرأس الحليق

وكان من عاداتهم المتصلة بعادة أخذ الثأر أن الموتور يحرم على نفسه الملذات وينقطع عن الشراب ويمتنع عن الاغتسال ويتجنب النساء، فعندما قتل تأبط شرا حرم ابن أخته على نفسه الملذات حتى يثأر له وعندما أخذ بثأره قال(٤):

---

(١) الديوان ص ٦٧ ط دار التراث ببيروت ١٩٦٨.
(٢) السابق والصفحة نفسها.
(٣) الديوان ص ٦١.
(٤) ديوان الحماسة لأبي تمام: ٣٤٦/١ ط ٣، ١٩٢٧ بتحقيق محمد سعيد الرافعي.

حلـت الخمـر وكـانت حرمـاً          وبـلأ مـا ألمـت تحـل

وقال المهلهل بعد مقتل كليب(١):

خذ العهـد الأكيـد علـيّ عمـرى          بـتركى كـل مـا حـوت الديـار
وهجرى الغانيات وشـرب كـأس          ولبسـى جبـة لا تسـتعار
ولسـت بخـالع درعـى وسـيفى          إلـى أن يخلـع الليـل النهـار
وإلا أن تبيـد سـراة بكـر          فـلا يبقـى لهـا أبـدا أثـار

ولما سمع امرؤ القيس بمقتل والده قال: لا صحو اليوم ولا سكر غـدا، اليوم خمر وغدا أمر، ثم قال:

خليلى ما فى اليوم مصحى لشارب          ولا فى غد إذ كان ما كان يشـرب

ثـم امتنـع عـن كـل الملـذات حتـى هـاجم بنـى أسـد وقتـل منهـم الكثـير وشفى غليله.

وكانت المرأة فى الجاهلية إذا توفى عنها زوجها دخلت حفشا (أى خصا) ولبست شر ثيابها فلم تمس طيبا ولا شيئا حتى تمر لها سنة، ثم تؤتى بدابة حمار أو شاة أو طير فتفتض به أى تتمسح به، ويزعمون أنه قلما تفتض بشئ الا مات. وكل هذا مرتبط فيما أرى بمعتقداتهم فـى السـحر الـذى يسيطر عادة على الأمم القديمة.

ومن العادات التى تفسر علاقة الرجل بالمرأة فى المجتمع الجاهلى مـا يسمى بالرتائم، واحدتها الرتيمة وهى أن يعقد الرجل إذا أراد السفر شجرتين أو غصنين، فان رجع وهما على حالهما كانت زوجته محتفظة بوفائها له، فإن لم يجدهما على ما تركهما فقد خانته.

---

(١) الموجز فى الأدب العربى وتاريخه ط دار المعارف: ص ٨٢.

ومن المعتقدات الغريبة في هذا المجال أن الرجل إذا أحب امرأة وأحبته فلم يشق برقعها ولم تشق هي رداءه فان حبهما يفسد، يقول في ذلك سحيم عبد بني الحسحاس:

فكم قد شققنا من رداء محبر … ومن برقع عن طفلة غير عانس
إذا شق برد شق بالبرد مثله … دواليك حتى كلنا غير لابس

وكان الرجل إذا مات قام أكبر ولده فألقى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها، فإن لم يكن له فيها حاجة تزوجها بعض اخوته بمهر جديد، فكانوا بذلك يرثون نكاح النساء كما يرثون المال.

وكانت بينهم عادة حمل التمائم والتعاويذ، للمداواة أو خوفاً من الموت أو البلاء.

وكانوا إذا غدر الرجل بجاره أو قدوا له نارا بمنى أيام الحج على الأخشب، وهو الجبل المطل على منى، ثم صاحوا: هذه غدرة فلان، تقول امرأة من هاشم في ذلك:

فان نهلك فلم نعرف عقوقا … ولم توقد لنا بالغدر نار

كذلك كانوا إذا عقدوا حلفا شبوا ناراً ويدعون الله بالحرمان والمنع على الذى ينقض العهد، ويطرحون فيها الكبريت والملح، فإذا فرقعت هول على الحالف.

ومن عاداتهم تعليق الحلى والجلاجل على اللديغ ليشفى، ويعللون ذلك بأن اللديغ إن نام سرى السم فيه فيهلك فشغلوه بالحلى والجلاجل وأصواتها عن النوم. وقيل لبعض الأعراب: أتريدون سهره؟ فقال: إن الحلى لا تسهر، ولكنها سنة ورثناها، وإلى ذلك يشير النابغة بقوله:

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرقش فى أنيابها السم نافع
يسهد من ليل التمام سليمها بحلى النساء فى يديه قعاقع

وكان يقولون عن اللديغ: السليم تفاؤلا بسلامته وشفائه. كما سموا البادية وهى المهلكة بالمفازة تفاؤلا بالفوز والنجاة.

وكان من عاداتهم: ممارسة اللعب للتسلية فى وقت الجدب والقحط يصف لنا الجاحظ لعب الأعراب الشائعة بينهم كالبقيرى وعظيم وضاح والخطرة والدارة والشحمة والحلق ولعبة الضب، ويعقب عليها بعد أن شرحها فيقول: «وهذا كله فى ليالى الصيف عن غب ربيع مخصب» وقد اعتادت القبائل العربية ايقاد النار فى مناسبات كثيرة منها الاستسقاء، وكانت الجاهلية الأولى فيما يقول النويرى إذا تتابعت عليهم الأزمات واشتد الجدب واحتاجوا إلى الأمطار يجمعون لها بقرا معلقة فى أذنابها وعراقيبها السلع والعشر، ويصعدون بها إلى جبل وعر ويشعلون فيها النار ويضجون بالدعاء والتضرع، وفى ذلك يقول الوديك الطائى:

لا در در رجال خاب سعيهم يستمطرون لدى الأزمات بالعشر
أجاعل أنت بيقورا مسلعة ذريعة لك بين الله والمطر

ويقول أمية بن أبى الصلت:

ويسوقون باقر السهل للطود مهازيل خشية أن تبورا
عاقدين النيران فى بكر الأذنب منها لكى تهيج النحورا
سلع ما ومثله عشر ما عائل ما وعالت البيقورا

وكانت الملوك حين تهب الابل تغرز الريش فى أسنمتها علامة لحباء الملك وحماية لها وتشريفا لصاحبها، قال الشاعر:

يهب الجلاد بريشها ورعائها كالليل قبل صباحه المتبلج

وقيل فى الأخبار: رجع النابغة الذبيانى من عند النعمان وقد وهب له مائة من عصافيره بريشها. وكان الملوك يستخدمون الريش إذا جاءتهم الخرائط بالنصر فكانوا يغرزون فيها قوادم ريش أسود.

كما كان من عاداتهم ضرب الثور إذا عافت البقر ورود الماء، فهو يضرب ليقتحم الماء، فتقتحم البقر بعده، قال نهشل بن جرى:

كذاك الثور يضرب بالهراوى إذا ما عافت البقر الظماء

ومثل ذلك ما يفعلونه فى العر[1] عندما يصيب الإبل، فيكوى الصحيح ليبرأ السقيم. قال النابغة:

وكلفتنى ذنب امرئ وتركته كذى العر يكوى غيره وهو راتع

أما عاداتهم فى طعامهم فتفيض المصادر الأدبية فى ذكرها، ويقول الجاحظ: إن العرب كانت فى الجاهلية تأكل دم الفصد وتفضل طعمه وتخبر عما يورث من القوة كما كانت تأكل الحيات، ويقول أيضاً: «زعم ناس أن العرب لم تكن تأكل القرود وكان من تنصر من كبار القبائل وملوكها يأكل الخنزير فأظهر القرآن لذلك تحريمه، إذا كان هناك عالم من الناس وكثير من الأشراف والوضعاء والملوك والسوقة يأكلونه أشد الأكل ويرغبون فى لحمه أشد الرغبة.

ومن عاداتهم فى المظهر: تلبيد الشعر، وهو أخذ شيئ من خطمى

(١) العر: العر (بفتح العين): الجرب، وبضمها. قرح يأخذ الابل شبيه بالقرع، وربما تفرق فى مشافرها مثل القوباء يسيل منه ماء أصفر.

وآس وسدر وشئ من صمغ فيجعله العربى فى أصول شعره وعلى رأسه كى يتلبد شعره ولا يعرق ويدخله الغبار ويخم فيقمل وكان العرب يكرهون تسريح الشعر وقتل القمل، فكان التلبيد يقل معه القمل.

وللجاهلين فى حروبهم عادات كثيرة منها ايقاد النار فى الحرب للأهبة والانذار(١)، ومنها أن الفارس إذا قتل رجلا مشهوراً وضع سيفه عليه ليعرف قاتله، يقول متمم بن نويرة فى ذلك:

لقد كفن المنهال تحت ردائه ... فتى غير مبطان العشيات أروعا

ويقول عنترة:

إذا لاقيت جمع بنى أبان ... فانى لائم للجعد لامى

كسوت الجعد جعد بنى أبان ... ردائى بعد عرى وافتضاح(٢)

كذلك كانوا يتمدحون ببعد المغزى كما ينبئنا الشاعر الجاهلى الحارث ابن يزيد فى قوله:

لا لا أعق ولا أحوب ... ولا أغير على مضر

لكنما غزوى إذا ... ضج المطى من الدبر(٣)

وكانوا يمسكون عن بكاء قتلاهم حتى يدركوا ثأرهم، فإذا أدركوه بكوا حينئذ.

يقول الربيع بن زياد العبسى:

من كان مسروراً بمقتل مالك ... فليأت نسوتنا بوجه نهار

يجد النساء حواسرا يندبنه ... يلطمن أوجههن بالأسحار

---

(١) نهاية الأرب ١: ١٠٩.

(٢) الحيوان ٣: ٥٠٥ والرداء يعنى به السيف.

(٣) السابق ٣: ٧٧.

قد كن يكنن الوجوه تسترا فالآن حين برزن للنظار[١]

ومن عاداتهم فى الحروب أنهم إذا أسروا رجلا ومنوا عليه فأطلقوه جزوا ناصيته ووضعوها فى الكنانة، تقول الخنساء:

جززنا نواصى فرسانهم وكانوا يظنون أن لا تجزا[٢]

ومن عادتهم: تسمية أبنائهم بأسماء ذات علاقة بالحيوان أو المظاهر الطبيعية مثل: كلب وأسد وحجر وحنظلة وجبل وطود وشمس.. ونحو ذلك.

وكان العرب فى الجاهلية إذا لم يحبوا رجوع شخص رحل عنهم أوقدوا خلفه ناراً، وفى ذلك يقول الشاعر:

وجمة قوم قد أتوك ولم تكن لتوقدُ ناراً خلفها للتندم

وبعد:

فقد حاولنا فى هذا المبحث – كما رأيت – أن نرصد ما يمكن رصده من ملامح الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر لنتعرف على تلك الملامح من ناحية ولندرك معالم تأثيرها فى الحياة الأدبية الجاهلية من خلال النماذج التى سقناها فى ثنايا العرض.

ومما لا شك فيه أن ما ذكرناه يدل على ما كان للشعر من دور اجتماعى وأخلاقى فى الإفادة والتعبير عما شاع فى هذا العصر من مظاهر اجتماعية وعما تحلى به الجاهليون من صفات كريمة، وعما ألفوه من عادات وتقاليد توارثوها عن بعض.. وتعبير الشعر عن ذلك وغيره ذو دلالة بينة على أن الشعر لم يكن فى هذا العصر مجرد متعة وملهاة، ولا محض رفاهية كمالية بل كان إعلاماً عن الإنسان الجاهلى فى علاقته مع نفسه وعلاقته مع غيره.

---

(١) عيار الشعر: ٣٢.

(٢) نهاية الأرب ٣: ١٢٠.

﴿٧٠٥﴾

# المعارف الثقافيـة

لابد لدارس الأدب الجاهلى من التعرف العام على طبيعة البيئة العقلية والثقافية التى أنتجت هذا الأدب. ففى ذلك ما يجعل الدارس يقدم فهما أفضل، وصورة أكمل لطبيعة هذا الأدب، فضلاً عن تقديمه صورة عامة عن طبيعة العقلية والثقافية العربية فى ذلك العصر، ومدى ما كان لذلك من انعكاسات على الأدب الجاهلى. ومما لا شك فيه أن الثقافة الجاهلية هى التى شكلت الأساس الذى نشأت عليه الثقافة العربية عامة فيما بعد حين تطورت تطورا كبيراً وجديداً وراقياً بظهور الإسلام.

ومما لا شك فيه أيضاً: أن محاولة التعرف على الثقافة الجاهلية واستقراء كل ملامحها مسألة صعبة، فقد غاب عنا كثير وكثير من مصادرها لظروف تاريخية مختلفة منها تحرج العلماء المسلمين من رواية ما لا يتفق والمبادئ الإسلامية. وفى هذا المعنى قال الدكتور طه حسين:

«كان القدماء مسلمين مخلصين فى حب الإسلام فأخضعوا كل شئ للإسلام، وحبهم إياه، ولم يعرضوا لمبحث علمي ولا لفصل من فصول الأدب أو لون من ألوان الفن إلا من حيث أنه يؤيد الإسلام، ويعزه ويعلى كلمته. فما لاءم مذهبهم هذا أخذوه وما نافره انصرفوا عنه انصرافاً»[١].

ولكن وصفنا للتعرف على ملامح الثقافة الجاهلية كاملة بالصعوبة ليس معناه أننا نوافق أولئك الدارسين الذين حملتهم هذه المعاناة على تقديم

---

(١) فى الأدب الجاهلى لطه حسين: ص ٨٦.

صورة مظلمة شديدة الظلام عن ثقافة العصر الجاهلى، فوسموه بعصر الجهل وندرة المعرفة واستحالة الثقافة وضحالة الفكر.

لا نوافقهم على هذا لإيماننا بأنهم بظنهم هذا سطحيون أو مغرضون أو على أقل تقدير متشائمون. ومن ناحية أخرى: ليس من المعقول أن ينشأ الأدب الجاهلى ولا سيما الجانب الشعرى فيه بكل ما نراه فى هذا الجانب من فنية أدبية عالية دون أن يكون المجتمع الذى أفرز هذا الأدب قد بلغ درجة معينة من الثقافة الراقية، ولو إلى حد ما.

فالعصر الجاهلى لم يكن خلوا من عالم الفكر والثقافة، بل لا أبالغ فى شئ إذا قلنا: إن الحياة الجاهلية كانت تعج بالأفكار والثقافات والتجارب وأنه كان لا يعوز هذا الجيل من البشر إلا تنظيم هذا الفكر وتنسيقه، فقد كانت الحياة الفكرية ثرية ولكنها كانت متشابكة الفروع متلاطمة الأجزاء، أما تشعب هذه الحياة الفكرية فلا يكاد يعوزه الدليل ومعروف من الحياة السياسية للعرب أنهم كانوا فى جوار دولتين عظيمتين: دولة الروم فى الشمال ودولة الفرس فى الشرق، والأولى تمثل معيناً فكرياً ضخماً بينما تمثل الثانية حضارة مادياً كان لها أثرها فى الشعوب المجاورة، ولا شك أن هذا الجوار كان له لقاحه الفكرى والثقافى، وقد ظهر شيئ غير قليل منه فى الأدب الجاهلى.

يقول الهمدانى فى كتابه «الوشى المرقوم» فى وصف انتقال الثقافات العالمية إلى العرب وتأثرهم بها: «ولم يصل إلى أحد خبر من أخبار العرب والعجم إلا عن طريق العرب. وذلك لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة وأخبار أهل الكتاب، وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار

الناس، وكذلك من سكن الحيرة وجاور الأعاجم علم أخبارهم وأيام حمير وسيرها فى البلاد. وكذلك من سكن الشام خبر بأخبار الروم واليونان، ومن وقع بالبحرين وعمان فمنه أتت أخبار السند وفارس ومن سكن اليمن علم أخبار الأمم جميعاً لأنه كان فى ظل الملوك».

ويقول الدكتور شوقى ضيف:

«ومما لا ريب فيه أن العرب الشماليين كانوا على صلة بالحضارات المجاورة، فقد كان تجار مكة يدخلون فى مصر والشام وبلاد فارس، وكان الحيريون يتصلون مباشرة بالفرس، كما كان الغساسنة يتصلون بالروم، وقد تنصروا، وشاعت النصرانية فى قبائل الشام والعراق، ونزل بينهم كثير من اليهود فى الحجاز واليمن. وكل ذلك معناه اتصال العرب الشماليين بالأمم المجاورة وحضاراتها، ولكن يبدو أن ذلك كان يجرى فى حدود ضيقة وأنه وقف فى جمهوره عند تأثرات بسيطة كأن يأخذوا عن الفرس والروم بعض فنون الحرب أو يعرفوا بعض أخبارهم وأساطيرهم، ففى السيرة النبوية أن قريشاً حين جمعت العرب – بعد موقعة أحد – لغزو المدينة أشار سلمان الفارسى على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحفر الخندق، حتى لا يستطيعوا اقتحام المدينة عليه، وكأنه كان أعلم من حوله بأساليب الحرب. وفى السيرة أيضاً أن النضر بن الحارث كان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وإسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهو لا يزال فى مكة) مجلساً فذكر فيه الله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله خلفه فى مجلسه إذا قام. ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلم إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن

ملوك فارس وأبطالهم الأسطوريين.

فالعرب الشماليون لم يكونوا منقطعين عن التأثيرات الحضارية الأجنبية، غير أنه ينبغى أن لا نبالغ فى تصور ما وصل إليهم من هذه التأثيرات، فقد كانوا لا يزالون فى طور السذاجة البدوية، وكل ما يمكن أن يقال إنهم كانوا فى نهاية هذا الطور»[1].

إذن لا ينبغى أن ننفى الفكر والثقافة جملة عن عرب الجاهلية، لأنهم كما رأينا كانوا على صلات ذات أبعاد مختلفة بدول العالم المتحضرة فى ذلك الوقت، ولا ينبغى فى الوقت ذاته أن نبالغ فى إفادتهم من المؤثرات العلمية والفكرية والثقافية التى أتيحت لهم أو لبعضهم فى بلاد الفرس وبيزنطة ومصر. ولا ينبغى كذلك أن نذهب فى الحديث عن عقليتهم وثقافتهم إلى أبعد شوط فنزعم أنهم بلغوا فى ذلك مبلغا جد رفيع. ذلك أن تفكير العربى فى العصر الجاهلى لم يكن موسوماً بالتفكير العلمى المبنى على ربط المسببات بالأسباب ربطاً محكماً نتيجة للدراسة والبحث والتمحيص، إنما كان فى أغلبه يعتمد على البديهة وحدة الخاطر، وكثرة التجارب وعلى التقليد والكهانة والعرافة والعيافة وزجر الطير، وما إلى ذلك من مقومات التفكير فى المجتمعات القديمة البعيدة عن مناهل العلم والمعرفة.

على أن العرب الجاهليين لم يكن من السهل عليهم أن يتجاوزوا ما فرضته عليهم تقاليدهم البدوية، وينخلعوا منه تماماً ليتحولوا بين يوم وليلة إلى

(١) العصر الجاهلى: ص ٨١، ٨٢ وانظر: السيرة النبوية لابن هشام: ٢٣٥/٣ ط الحلبى وكذلك ٣٢١/١ من المصدر نفسه.

أمة تعادل أو تدنو من الدول المتحضرة التى احتكت بها فى الحضارة والثقافة.

لقد كان العرب – كما يقول الدكتور ابراهيم عوضين – «مقيدين فى ذلك الميدان بقيد أخلاقى بدوى، لم يكن لهم معه خيار، هذا القيد هو ما استقر فى نفوسهم علي مدى أجيال سابقة من شعور بالتسامى والرفعة، جعلهم يأنفون من كل ما من شأنه أن يحط من قدرهم؛ فهم السادة والقادة، وهم أرباب السيف والكلمة، وهم الجنس الخالص المتصل النسب؛ فكيف يأخذون عن أعجمى يرطن، وماذا يأخذون؟ أعتقد أن هذا التقدير لأنفسهم كان وراء تأبيهم على التأثر بثقافات ومعارف من يخالطون من روم وفرس ومصريين، وزادهم تماسكاً أمام التأثر والاحتذاء أن الحياة العربية فى شبه الجزيرة العربية ما كانت تتطلب مزيداً من المعارف، أو هكذا كان تصورهم للحياة، فمشكلات الحياة، وتعقد المواقف هو الذى يعوز إلى البحث عن الحلول والابتكار فيها، ومن ثم يعوز إلى النقل والأخذ عن الآخرين متى لم يسعفه تراثه الحضارى والثقافى والعلمى إلى علاج ما جد فى حياته. والعرب فى العصر الجاهلى – وهم المعتزون بما هم فيه – لم يحسوا بالحاجة إلى شئ من ذلك.

ولعل فى هذا تفسير تأبيهم على التأثر بالحضارات الأجنبية تأثرا ذا قيمة تاريخية أو حضارية. فمما لا شك فيه أن هناك تأثيراً أصاب عقولهم ودخل حياتهم، لكنه تأثير طفيف لا يكاد يتراءى على السطح الزمنى الممتد الذى غطى تلك العلاقات العربية الأجنبية»[1].

(١) الأدب العربى فى الجاهلية وصدر الاسلام: ص ٣٦ مطبعة السعادة – الطبعة الأولى ١٣١٦هـ/ ١٩٧٦م.

ونخلص مما تقدم إلى أن العرب وإن لم يتأثروا تأثرا ذا قيمة تاريخية أو حضارية بحضارات الأمم الأخرى فإنهم كانت لهم ثقافات وعلوم ومعارف تتناسب مع عقليتهم البدوية وبيئتهم الصحراوية التى عاشوا فيها.

«ومن العجب أن يكون أكثر العرب فى العصر الجاهلى بدوا لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، فضلاً عن أن يعرفوا علما أو ثقافة، ومع ذلك فقد كان لهؤلاء البدو لون من ألوان الثقافة الشعبية المستمدة من البيئة والتجارب والاقتباس من قريش؛ حكام مكة، وزعماء الحجاز فى العصر الجاهلى.

أما مدن الحجاز وفى مقدمتها: مكة، والمدينة، والطائف، فكان لها طابع آخر، إذ كان الكثير من أهلها متقفين ثقافة خاصة بتأثير البيئة والاختلاط والرحلات ومواسم الحج وأسواق العرب، فقد كان الحارث بن كلدة وابنه النضر بن الحارث متقفين بثقافة فارسية واسعة، وكان بنو عبد مناف يرحلون إلى كسرى وقيصر وإلى اليمن فى متاجرهم، ويتزودون بقسط من ثقافات هذه الأمم، ويعقدون المعاهدات التجارية مع هذه الأمم المجاورة لهم.

كما كان عمارة بن الوليد المخزومى وعمرو بن العاص - كلاهما - تاجرين، خرجا إلى النجاشى، وكانت أرض الحبشة لقريش متجراً ووجها ، وكان أبو رافع يلقب تاجر أهل الحجاز.

وكان بمكة طبقة متقفة تدعى طبقة الحكام، يفصلون فى كل المشكلات، وتعرض عليهم شتى الخصومات فيقضون فيها. ومن الحكام بمكة من قريش من بنى هاشم: عبد المطلب، والزبير، وأبو طالب. ومن بنى أمية: حرب بن أمية، وأبو سفيان بن حرب. ومن بنى زهرة: العلاء الثقفى حليف

بنى زهرة ومن بنى مخزوم: العدل؛ وهو الوليد بن المغيرة. ومن بنى سهم: قيس بن عدى، والعاص بن وائل. ومن بنى عدى: كعب بن نفيل.

ولا شك أن هذه الطبقة كانت مظهراً لثقافة أصيلة، وهى لا ريب كانت عاملا مهما فى تطور الحياة العقلية عند العرب فى العصر الجاهلى. وقد يقال: إن هذه الطبقة نشأت على الحكمة نشأة الفطرة والطبع - كما ذهب إلى ذلك الشهر ستانى فى الملل والنحل - ولكننا ننفى ذلك، فلا يمكن أن يكون مثلاً هذا النظام السياسى الذى وضعه قصى وبنوه لحكم مكة فى العصر الجاهلى أثراً من آثار الفطرة والطبع، إنما هو مظهر لثقافة سياسية ربى أبناء قصى عليها رحلاتهم ومشاهداتهم فى الأمم التى كانوا يذهبون بقوافل التجارة إليها»(١).

وألوان الثقافة الشعبية التى استمدها العرب من تجاربهم العملية فى حياتهم اليومية ألوان عديدة. وعلى الرغم من شعبيتها ومن صدورها من ظروف الاستجابة للبيئة والاتصال بمن جاورهم من الأمم والنشاط العملى فى حياتهم اليومية وفقا للتنظيم الاجتماعى الذى عرفوه كانت بحق ألوانا ومعارف ثقافية جديرة بالإعجاب، لأنها تمثل فى جملتها ملاحظاتهم الدقيقة عن الطبيعة والحيوان من حولهم، وعن الطب والأنساب والأنواء وغير ذلك من المعارف التى كانوا يتوارثونها جيلا عن جيل.

ويأتى فى قمة هذه المعارف: سمو أدبهم وفصاحة قولهم وروعة

---

(١) قصة الأدب فى الحجاز فى العصر الجاهلى لعبد الله عبد الجبار وآخر: ص ٢١٩، ٢٢٠ دار مصر للطباعة - القاهرة ١٩٥٨م. «بتصرف يسير».

جوابهم، ولذلك تحداهم القرآن الكريم فى أخص خصائصهم وهى البلاغة والبيان.

ولا يصح بحال أن نصم عرب الجاهلية بالجهل والأمية المطلقة كما وهم بعض الباحثين، كما لا يصح تفسير تلك الأمية التى نعتهم بها القرآن الكريم بجهلهم جميعاً للقراءة والكتابة، إذ يرى كثير من الباحثين أن لفظة الأمية لم تكن تعنى عند الجاهليين عدم القراءة والكتابة والجهل بهما، وإنما كانت تعنى عندهم: مشركين ووثنيين، وهو المعنى الذى ورد فى القرآن الكريم[١]. وقال بعض المفسرين فى تفسير قوله تعالى: (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) الجمعة: الآية ٢: معناه: لم ينزل الله عليهم كتابا سماويا يشرع لهم حياتهم. ومثل ذلك لفظة (الجاهلية) فتفسيرها بالأمية والجهل تفسير مغلوط لأن المراد بها – السفه والحمق والغلظة والغرور وما ماثل ذلك من معان.

ولقد حاول الدكتور ناصر الدين الأسد فى كتابه القيم عن مصادر الشعر الجاهلى وتوثيقها تصحيح بعض المفهومات عن ثقافة العرب فى العصر الجاهلي، فقال – من بين ما قال –:

«من الإخلال الفاضح بالمنهج السديد أن ينظر إلى العصر الجاهلى نظرة واحدة، وأن يحكم عليه حكم عام مطلق، وأن يوصم عرب الجاهلية جميعاً بالبداوة والجهالة، فلا تراعى هذه الفروق الواسعة فى البيئات الاجتماعية المتباينة. فإن صح أن بعض الأعراب فى صحراء الجزيرة كانوا

---

(١) انظر: المفصل فى تاريخ العرب لجواد على: ١٠٥/٨.

فى معزل عن العالم المتمدين آنذاك. فإنه من الصحيح كذلك أن بعض البيئات الاجتماعية الأخرى كانت متصلة بمعالم المدينة لذلك العهد مواكبة لركب الحضارة»[١].

وفى سبيل تأكيد هذا المعنى يحشد المؤلف مجموعة من النصوص التى ينتهى فى مناقشتها إلى القول بأن عرب الجاهلية كانوا يعرفون القراءة والكتابة، وأن الجاهلية التى وصموا بها إنما هى جاهلية دينية... «فقد كان العرب إذن يكتبون فى جاهليتهم ثلاثة قرون على أقل تقدير بهذا الخط الذى عرفه بعد ذلك المسلمون... وقد أصبحت معرفة الجاهلية بالكتابة معرفة قديمة، أمراً يقينيا يقرره البحث العلمى القائم على الدليل المادى المحسوس»[٢].

وهكذا يثبت المؤلف بعد مناقشة طويلة أن عرب الجاهلية قد عرفوا الكتابة العربية بهذا الخط الذى عرفه الصحابة رضوان الله عليهم فى صدر الإسلام. وقد ثبت وجود المعلمين فى الجاهلية، كما ثبت وجود ما يشبه المدارس الخاصة عند العرب قبل الإسلام[٣]. بل إن بعض العرب كان يعرف إلى جانب قراءة العربية وكتابتها عدداً من اللغات الأخرى.

وأما موضوعات الكتابة عندهم فقد كانت تشتمل على الكتب الدينية لليهود والنصارى، كذلك استخدمت الكتابة فى تسجيل العهود والمواثيق والأحلاف والصكوك التى كان عرب الجاهلية يكتبون فيها حساب تجارتهم

---

(١) مصادر الشعر الجاهلى: ص
(٢) المرجع السابق ص
(٣) المرجع السابق ص

وحقوقهم علي غيرهم، وغير ذلك.

وقد عرف العرب من أدوات الكتابة الجلد الذى كانوا يسمونه «الرق» والقماش من الحرير أو القطن، والنبات وأشهر أنواعه «العسيب» وجمعه عسب وهو السعفة، أو جريدة النخل، إذا يبست وكشط خوصها؛ كما عرفوا العظام والحجارة والورق أى ورق البردى الذى يسميه ابن النديم القرطاس المصرى والطومار المصرى. وهكذا لم يترك العرب وسيلة يكتبون عليها إلا التمسوها.

أما ما يكتبون به فقد كان منه: القلم، وكان يصنع من القصب، ويقط ثم يغمس فى مداد الدواة ويكتب به، وكان من ذلك أيضاً الدواة والمداد. وقد ورد فى نصوص الجاهليين إشارات إلى كل الذى قدمنا، فقد جاء فى ذكر القلم مثلا قول عدى بن زيد:

ما تبين العين من آياتها
غير نؤى مثل خط بالقلم

وقول الزبرقان بن بدر:

هم يهلكون ويبقى بعد ما صنعوا
كأن آثارهم خطت بأقلام

وقول المرقش الأكبر:

الدار وحش والرسوم كما
رقش فى ظهر الأديم قلم

لكن العرب وإن عرفوا القراءة والكتابة، لم تسمح لهم حياتهم

الاجتماعية بنشأة علم منظم أو وجود علماء يتوافرون على العلم، يدونون قواعده ويوضحون مناهجه، لأن العلم وليد الحضارة، ولا يكون إلا بعد أن تتخطى الأمة مرحلة البداوة إلى مرحلة التمدن، حيث يكثر المال ويعم الرخاء، و يستطيع بعض الناس التفرغ للعلم والبحث، وذلك كما يقول ابن خلدون فى مقدمته فى فصل يشير عنوانه: إلى أن العلوم تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة، وقد علل ذلك قائلا:

«والسبب فى ذلك أن تعليم العلم، كما قدمناه من جملة الصنائع. وقد كنا قدمنا أن الصنائع إنما تكثر فى الأمصار، وعلى نسبة عمرانها فى الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع فى الجودة والكثرة، لأنه أمر زائد على المعاش، فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف فى خاصية الإنسان، وهى العلوم والصنائع».

ويلاحظ أن العرب وإن عرفوا القراءة والكتابة لم يلجأوا إلى تدوين أخبارهم وأشعارهم بسبب اعتمادهم على الرواية والحفظ الذى لا يشق لهم غبار فيه. ولقد كانوا قليلى الأعمال يحبون السمر والحديث، فرووا أخباراً كثيرة اعتمد عليها المؤرخون فى عصر التدوين. ولم يقتصروا فيما رووه على أخبار العرب بل رووا الكثير من أخبار الأمم المجاورة لهم. فمن سكن مكة أحاط بأخبار العرب العاربة وأخبار أهل الكتاب والأمم التى كانت قريش تتجر معها. ومن سكن الحيرة، خبر بأخبار العجم، لمجاورته لهم، وأخبار حمير. ومن سكن الشام خبر بأخبار الروم واليونان. ومن سكن البحرين وعمان، خبر بأخبار السند وفارس ومن سكن اليمن أخبر بأخبار أمم كثيرة.

وكان النضر بن الحارث كما سبق القول يروى أخبار الفرس والأكاسرة ويعارض بذلك ما يتلوه النبى صلى الله عليه وسلم من القرآن الكريم.

ولكن ما ورد من هذه الأخبار، لم يسلم من الدس والتحريف والمبالغات كما حدث لغيرهم من الأمم، إلا ما تضافرت الروايات على صدقه، كقصة أصحاب الفيل ونحوها.

فراوية الأخبار والأشعار معلم بارز من معالم النضج العقلى والرقى الثقافى عند هؤلاء العرب البدو، وحسبهم ذلك فخرا وشرفا وحسبهم أن هذه الرواية ظلت ديدنا للعرب بعد ظهور الإسلام، وعليها اعتمد المدونون للأدب القديم والحديث النبوى والسيرة النبوية العطرة الشريفة، ولولاها ما دون شيئ من ذلك فى مصادره المعروفة.

وكان للجاهليين من المعارف والعلوم الثقافية: العلم بالأنساب، وما ينطوى فى ذلك من المناقب والمثالب، مما سجله العباسيون فى مجلدات ضخمة ، وكأنهم رأوا فى ذلك كله تاريخهم، فكانوا يروونه ويحفظونه أبناءهم، واشتهر عندهم كثيرون فى هذا الباب من أبواب الرواية.

وكانوا من أحفظ الأمم، وأشدها عناية بحفظ أنسابهم، وكانوا يعتبرون علم الأنساب من أشهر علومهم ومعارفهم التى يفخرون بها ويتحدون فى جلالها جميع الأمم القديمة التى لا تحافظ على أنسابها وقد دعاهم إلى عنايتهم بهذا العلم – إن صح تسميته بالعلم التفاخر بالعصبيات والتفاخر بكثرة العدد والرغبة فى إبراز تفوقهم الجنسى، وتميزهم الاجتماعى على من يجاورهم من الأمم المختلفة، وحرصاً على الاعتزاز بمواقف آبائهم وأجدادهم؛ ولذلك كانت

كل قبيلة حريصة على أن يكون من أبنائها من يبرز فى ذلك العلم، وكان لهذا أثره فى أدبهم، فقد استمدوا منه مفاخرهم التى امتلأ بها شعرهم.

وكان فى كل قبيلة نسابة يعرف من أنساب العرب وقبائلهم وبطونهم وأفخاذهم ومفاخرهم ومثالبهم، وأيامهم ووقائعهم ما يستوجب العجب والدهشة ويستطيع أن يلحق الفرع بأصله وينفى عن القبيلة من ليس من أبنائها.

وكان من أشهر النسابين فى العصر الجاهلى وما بعده: أبو بكر الصديق، وينسب إليه كثير من ألوان الحذق فى معرفة النسب العربى ومفاخره ومغامزه حتى إن حسان بن ثابت لما أراد هجاء قريش بعث به الرسول صلوات الله عليه إلى أبى بكر ليعلمه نسبهم وما يمكن القدح من جهته وما لا يمكن، ولما سمع أبو سفيان قصيدة حسان فى هجائه التى يقول منها:

وإن سنام المجد من آل هاشم ... بنو بنت مخزوم ووالدك العبد
ومن ولدت أبناء زهرة منهم ... كرام ولم يقرب عجائزك المجد

قال: هذا الشعر لم يغب عنه ابن أبى قحافة.

ولما هجا حسان قريشا، قال له الرسول صلوات الله عليه: كيف تهجوهم وأنا منهم، وكيف تهجو أبا سفيان وهو ابن عمى؟ فقال: والله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين، فقال له: أيت أبا بكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك، فكان يمضى إلى أبى بكر ليقفه على أنسابهم، فكان يقول له: كف عن فلانة وفلانة واذكر فلانة وفلانة، فلما سمعت قريش شعر حسان قالوا: إن هذا الشعر ما غاب عنه ابن أبى قحافة. وأبو بكر هو صاحب المثل المشهور «إن البلاء موكل بالمنطق».

ولقد بالغ الجاهليون فى معرفة أنسابهم، فرتبوها فى طبقات أولها الشعب فالقبيلة فالعمارة فالبطن فالفخذ ثم الفصيلة.

فالشعب: النسب الأبعد. كعدنان وقحطان. والقبيلة ما انقسم فيه الشعب: كربيعة ومضر. والعمارة: ما انقسمت فيه القبائل: كقريش وكنانة. والبطن ما انقسمت فيه العمارة؛ كبنى عبد مناف وبنى مخزوم، والفخذ ما انقسم فيه البطن: كبنى هاشم وبنى أمية. والفصيلة ما انقسم فيه الفخذ، كبنى أبى طالب وبنى العباس. فالفخذ يجمع الفصائل، والبطن يجمع الإفخاذ، والعمارة تجمع البطون، والقبيلة تجمع العمائر، والشعب يجمع القبائل.

وإذا تباعدت الأنساب، صارت القبائل شعوباً، والعمائر قبائل.

على أن مسألة الأنساب لم تكن فى جوهر الأمر قضية علاقة الدم فحسب، بل لقد حملت الضرورات قبائل جزيرة العرب على تكوين الأحلاف للمحافظة على الأمن والدفاع عن مصالحها المشتركة، كما تفعل الدول اليوم. وإذا دام الحلف أمداً، وبقيت هذه الرابطة التى تجمع شمل تلك القبائل متينة فإن هذه الرابطة تنتهى إلى نسب حيث لا يعرف أفراد الحلف أنهم من أسرة واحدة تسلسلت من جدٍ واحد. وقد يحدث ما يفسد هذه الرابطة أو يدعو إلى انفصال بعض قبائل الحلف. فتنضم القبائل المنفصلة إلى أحلاف أخرى[١].

ولقد كانت هذه الأنساب تحفظ شفاها عن ظهر قلب وكان لمعرفتها أهمية كبيرة لاتصالها بالتنظيم الاجتماعى القبلى الذى ساد الحياة العربية قبل الإسلام.

(١) انظر: المفصل لجواد على: ١/٣١٤.

وربما مثل اهتمامهم بشجرة النسب لونا من الاهتمام التاريخى بالماضى. بل وربما مثل نمطا من التاريخ الاجتماعى، كما يرجح أحد الباحثين[١]، حيث يلاحظ أن هذا التقسيم النسبى يستوعب أشكال التجمع المختلفة فى المجتمع القبلى وعلاقة كل مجتمع بغيره.

«على أن ذلك لا يعنى أن ما يرويه أهل الأخبار فى ذلك عن أزمنة أجداد القبائل يخلو من الأغلاط والأوهام: بل إن به بعض المبالغات الخرافية فقد يرفعون رجلا فيبعدون به عن الإسلام كثيراً بينما هو من الرجال الذين عاشوا قبيل الإسلام، وهناك أيضاً أخطاء فادحة فى سرد سلاسل النسب وفى أسماء الأشخاص، ولا سيما فى الأنساب القديمة حيث تختلط الأسطورة بالحقيقة، وحيث يبالغ القصاص فى رفع شأن من يتحدثون عنهم من الشخصيات البارزة التى كان لها شأن وخطر فى القدم، ولقد يضيفون السنوات الطويلة إلى أعمارهم ويكثرون من المبالغات والإغراب فى قصصهم ليكون ذلك أوقع فى نفوس السامعين.

ومن أجل هذه النزعة الخرافية كانت الأنساب ولا تزال مجال شك كبير لدى كثير من علماء المسلمين. وقديماً سئل الإمام مالك رحمه الله عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم، فكره ذلك وقال: من أين يعلم ذلك؟ فقيل له فإلى اسماعيل؟ فأنكر ذلك وقال: ومن يخبره به؟

على أن هذا التوسع فى فهم علاقات النسب بين البشر هو الذى مهد لقبول فكرة التاريخ العالمى، كما يقدمها الإسلام[٢].

---

(١) انظر: دروس ونصوص فى قضايا الأدب الجاهلى ص ١٧٩.
(٢) السابق: ص ١٨٠.

ونختم الحديث عن براعة العرب في علم الأنساب بالإشارة إلى أن عنايتهم بذكر أنساب القبائل وأصولها وفروعها قد امتدت إلى أنساب الخيل الأصيلة والإبل الكريمة، فمن ذلك مثلاً: أن أكرم فحل كان للعرب من الإبل يسمى «عصفوراً» وتسمى أولاده (عصافير النعمان)، ومن الفحول النجيبة فحل يسمى (أعوج) وآخر يسمى (ذا العقال)... وهكذا.

وكان للجاهليين نصيب كبير أيضاً من علمى «الفراسة» و«القيافة» وتتشابه الفراسة مع القيافة من أوجه وتختلف من أوجه أخرى، فكلاهما يستدل بهيئة الحاضر لمعرفة الغائب، ونستطيع أن نعرف الفراسة بأنها «ما يقع للإنسان من الغيب وتتسع المظاهر والظواهر للاستدلال على الأمور المخفية» وعرفها الزيات «بأنها الاستدلال بالأمور الظاهرة على الأمور الخفية كالاستدلال بلون المرء وشكله وقوله على خلقته، والاستدلال باتساع الجبين على الذكاء، وعرض القفا على الغباء، وضيق العين على الشح، وغلظ الشفتين على الإسراف فى الحب والبغض[1] والفراسة أن يستدل بهيئة الإنسان وشكل أعضائه على نسبه».

أما القيافة فهى إلحاق النظير بنظيره من حيث تساويهما من ناحية التشكيل للهيأة من لون وشكل، وهذا ينتج من تشابه يتأتى بالتناسل والوراثة، وربما وقع التشابه فى الأمور الحسية.

ومن القيافة الاهتداء إلى معرفة الإنسان بآثار قدميه، وقد وصل العرب فى دقة الملاحظة إلى الحد الذى جعلهم يميزون بين أثر الشاب

(١) انظر تاريخ الأدب العربى للزيات: ص

والشيخ، وبين أثر الرجل والمرأة، والبكر والثيب، وذلك يحتاج إلى طول ممارسة ودقة فى الملاحظة فى تتبع آثار ضغط القدم وكيفيتها واتجاهها. وأخبار ذلك أكثر من أن تحصر، ومنها اهتداء قريش لآثار النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر - رضى الله عنه - رغم مشى الغنم على آثارهما، ولازال علم القيافة ينتشر بين قبائل الجزيرة العربية إلى عصرنا، ومن أشهر تلك القبائل «بنو مرة» ولمهارة أبناء تلك القبيلة فى تتبع الأثر، عينت الحكومات فى شبه الجزيرة واحداً من أبناء تلك القبيلة عند كل أمير مدينة لتتبع السرقات والجرائم، ولقد أثبتوا جدارة فى ذلك. والقيافة نوع من المعارف لا تدخل ضمن الكهانة ولكنها تعتمد كما ذكرت على دقة الملاحظة والفطنة، ومما يروى فى ذلك أن نزال بن معد، قسم ميراثه بين أولاده قبل موته، وأخبرهم أن يحتكموا إلى الأفعى الجرهمى.. إذا اختلفوا فى القسمة وفى طريقهم لاحظ أولهم ويدعى «مضر» كلأ قد رعى، فقال: «إن البعير الذى رعى هذا الكلأ لأعور»، فقال ربيعة: وهو أزور، وقال إياد: وهو أبتر، فقال أنمار: وهو شرود، فلم يسيروا قليلا حتى لقيهم رجل، فسألهم عن بعير له ضال، فقال مضر: هل هو أعور؟ قال نعم، وقال ربيعة أهو أزور، قال نعم، وقال إياد: أهو أبتر، قال نعم، وقال أنمار: أهو شرود، قال نعم.. هذه والله صفة بعيرى، فدلونى عليه، فقالوا: «والله ما رأيناه»، قال: «قد وصفتموه بصفته فكيف لم تروه»، وسار معهم إلى نجران حتى نزلوا بالأفعى الجرهمى، فناداه صاحب البعير، إن هؤلاء أصحاب بعيرى، وصفوه بصفته، وقالوا «لم نره» فقال لهم الأفعى: كيف وصفتموه ولم تروه؟، فقال مضر: «رأيته يرعى جانباً من الكلأ فعرفت أنه أعور». وقال ربيعة: «رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر فعرفت أنه أزور». وقال إياد: «رأيت بعره مجتمعا

أ - قيافة الأثر.

ب - قيافة البشر.

أما قيافة الأثر فهى تتبع آثار الاقدام والأخفاف والحوافر والاستدلال بها على ذويها، وبذلك تعرف النعم الضالة والمسروقة، ومسالك اللصوص والفارين.. وقد مهروا فى ذلك حتى كانوا يميزون بين قدم الشاب والشيخ والرجل والمرأة والبكر والثيب. وتعتمد الحكومة المصرية إلى الآن على فريق من العرب فى تعقب اللصوص والسفاكين والمهربين.

وأما قيافة البشر، فهى الاستدلال بهيئة الإنسان وملامحه وأعضائه، على نسبه وقد روى أن قائفاً، دخل فرأى أسامة بن زيد، وزيداً، وعليهما قطيفة قد غطيا بها رأسيهما وبدت أقدامهما فنظر إليها وقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض، فسر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم.

وقد اشتهر بالقيافة بنوعيها من الجاهليين بنومدلج فى كنانة وبنو لهب من الأذد.

وكان للجاهليين بالإضافة إلى ما تقدم نصيب من الطب مكتسب بالتجارب أو منقول عن غيرهم من الأمم المجاورة، يتوارثونه عن مشايخهم وعجائزهم، وكانوا يعالجون مرضاهم بخلاصة النباتات، أو بالعسل، أو بالكى، وأحياناً بالبتر وبالحجامة. وكثير منهم كان يعالج المرضى بالرقى والعزائم. وأخذ بعضهم الطب عن الروم والفرس قبيل الإسلام.

ويلاحظ أن معارفهم الطبية قد امتزجت إلى حد ما بالخرافة

والخزعبلات وبالسحر، كإيمانهم بأن دم السادة يشفى من داء الكلب وأن عظام الميت تشفى من الجنون، وأن روحاً شريرة تحل فى المريض. وكان الكاهن يميل إلى استخدام الوسائل السحرية فى مداواة المرضى، كذلك اشتغلت النساء بالمعالجة والتطبيب أيضاً، وقد عرف طب البادية بطب الأعراب، كما عرف دواؤهم بدواء أهل البادية، وهو دواء يعتمد على المعالجة بالأعشاب والألبان وأبوال الإبل وما إلى ذلك.

فأما فى الحضر، فقد كانت هناك وسائل أخرى بالإضافة إلى ذلك ويعتقد أطباء العرب أن الشفاء يكون فى ثلاثة أمور: شربة عسل وشرطة محجم وكية نار، وكان الطبيب إذا عجز عن إشفاء مريضه بما عنده من الوسائل لجأ إلى الكى، ولذلك جاء فى أمثالهم: آخر الدواء الكى.

وكان لهم ملاحظات تتصل بالطب الوقائى. ومن ذلك قول الحارث بن كلدة طبيب العرب: «الدواء هو الأزم» – والأزم هو الحمية أى تجنب الطعام. كذلك من قبيل الطب الوقائى عندهم قولهم: «إياك وشرب الدواء ما حملت صحتك داءك» وقولهم: اغتربوا لا تضووا» – أى تزوجوا من الغريبات حتى لا يكون نسلكم ضعيفاً. وفى ذلك يقول العربى «بنات العم أصبر، والغرائب أنجب».

وكان من أشهر أطبائهم: الحارث بن كلدة الثقفى المتوفى عام ٤٣هـ، وهو من ثقيف ورحل إلى فارس، وتعاطى الطب هناك، ثم عاد إلى بلاده، وأدرك عصر الرسول، وعاش حتى أدرك عهد معاوية، وكان الرسول صلوات الله عليه يشير على من به علة أن يستوصفه، ومن حكمه: «البطنة

بيت الداء والحمية رأس الدواء».

ويؤخذ مما حوته اللغة العربية من أسماء العلل والأمراض والعقاقير أنهم عرفوا كثيراً من الأمراض وأنواع علاجها، كما أن الناظر فى كتب فقه اللغة، يتبين من ذكرهم أعضاء الجسم الإنسانى كلها: ما ظهر منها وما بطن – من الرأس إلى القدم والعروق – أنهم كانوا يعرفون التشريح.

وقد عرفوا أيضاً محاسن الخيل وعيوبها وأمراضها وعلاجها مما يسمى الآن «الطب البيطرى» (بيطر الدابة عالجها فهو مبيطر وبيطار وصنعته البيطرة). وقد تحدثوا طويلاً عن حيواناتهم وخصائصها حديثاً بل أحاديث أفاد منها الجاحظ فى حيوانه، غير أنه يعلق على ذلك بقوله: «وإنما أعتمد على ما عند الأعراب، وإن كانوا لم يعرفوا شكل ما أحتاج إليه منها من جهة العناية والفلاية[1] ولا من جهة التذاكر والتكسب، ولكن هذه الأجناس الكثيرة ما كان منها سبعاً أو بهيمة أو مشترك الخلق فإنما هى مبثوثة فى بلاد الوحش من صحراء أو واد أو غائط أو غيضة أو رملة أو رأس جبل، وهى فى منازلهم ومناشئهم، فقد نزلوا كما ترى بينها وأقاموا معها.. وربما بل كثيراً ما يبتلون بالناب والمخلب وباللدغ واللسع والعض والأكل، فخرجت بهم الحاجة إلى تعرف حال الجانى والجارح والقاتل وحال المجنى عليه والمجروح والمقتول، وكيف الطلب والهرب، وكيف الداء والدواء لطول الحاجة ولطول وقوع البصر، مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء.[1]

(١) الحيوان:

وصفوة القول فى هذا الجانب: أنهم عرفوا الطب الذى دعت إليه الحاجة لكن هذا الطب إنما هو طب قام على التجربة المحدودة الضيقة، والتراث المحفوظ والملقن، على ما وصفه ابن خلدون فى قوله:

«للبادية.. طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، متوارثة عن مشايخ الحى وعجائزه، وربما يصح منه البعض، إلا أنه ليس على قانون طبيعى ولا على موافقة المزاج، وكان عند العرب من هذا الطب كثير، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره»(١).

وإلى جانب هذه المعارف المتقدمة كان للجاهليين معارف بالجغرافيا والفلك. أما الجغرافية فيدل عليها معرفتهم الجيدة للأماكن والصحراوات والجبال وبقية التضاريس القائمة من حولهم. ومن المؤكد أن حياة الرعى والرحلة بحثا عن المرعى كانت سبباً جوهرياً لتفوقهم فى هذه الناحية، كما كان للتجارة وقوافلها أثرها فى هذه المعرفة سواء أكانت تجارة داخلية أم خارجية.

وفى نصوص كثير من شعرائهم ما يؤكد معرفتهم الجيدة للأماكن من حولهم، ومن ذلك مثلا لا حصرا قول امرئ القيس مشيرا إلى عدد من الأمكنة:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(١) المقدمة: ص ٣٤٦.

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها
لما نسجتها من جنوب وشمأل

ففى هذين البيتين نجد الشاعر يقوم بتحديد مواقع معينة فى بيئته تحديداً جغرافياً دقيقاً. كذلك فإن هذين البيتين يكشفان عن لون من المعرفة الدقيقة بأثر فعل الرياح، فهذه الأماكن الواقعة على خط مسار واحد، مازالت رسومها أو آثارها باقية، وكذلك يفعل ريح الجنوب وريح الشمال. ولذلك يقول بعض الشراح فى تحليل هذا المعنى: «لم يعف رسمها لاختلاف هاتين الريحين، ولو دامت عليه واحدة لعفا، لأن الريّح الواحدة تدرس الأثر، والريحين لا تدرسانه، ولأن الريح الواحدة تسفى على الرسم فيدرس، وإذا اعتورته ريحان فسفت عليه إحداهما، فغطته، ثم هبت الأخرى كشفت عن الرسم ما سفت الأولى».

وأما الفلك فيدل عليه معرفتهم الواسعة لأسماء النجوم وطلوعها وغروبها، وأنوائها وأمطارها، وكانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا.

وفى ذلك يقول الجاحظ: «وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء لأن من كان بالصحاصُح الأماليس - حيث لا أمارة ولا هادى مع حاجته إلى بعد الشقة - مضطر إلى التماس ما ينجيه ويؤديه، ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجدب وضنه بالحياة اضطرته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث، ولأنه فى كل حال يرى السماء وما يجرى فيها من كواكب ويرى التعاقب بينها والنجوم الثوابت فيها وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فارداً، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً. وسئلت أعرابية فقيل لها: أتعرفين النجوم؟ قالت: سبحان الله

أما أعرف أشباحاً وقوفاً علىَّ كل ليلة. ووصف أعرابى لبعض أهل الحاضرة نجوم الأنواء ونجوم الاهتداء ونجوم ساعات الليل والسعود والنحوس، فقال قائل لشيخ عبادى كان حاضراً: أما ترى هذا الأعرابى يعرف من النجوم ما لا نعرف؟ قال: من لا يعرف أجذاع بيته»؟![1].

ولقد عرفوا البروج المجموعة فى قول الشاعر:

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان
ورمى عقرب بقوس لجدى نزح الدلو بركة الحيتان[2]

وإن تشابه أسماء السيارات والأبراج أو اتحادها فى العربية والكلدانية لدليل على اعتماد العرب فى هذه المعارف على الصائبة.

ولقد كان لهم عناية كبيرة بالرياح والأمطار لاعتمادهم عليها فى حياتهم، فاستطاعوا بتجاربهم أن يعرفوا السحاب الممطر والكهام والبرق الخلب والصادق[3]، ودلالة الرعد على قرب المطر أو بعده، والسحب التى أمطرت، وفى أى مكان سقط مطرها، والسحب التى لم تمطر، ومتى تمطر. ولا يزال فى الكثير من البداة مثل هذه الفراسة. وفى كتب الأدب من الأخبار

---

(١) الحيوان: ٢٩/٦
ويعنى بالصحاصح: الأرض المستوية، وبالأماليس: الأرض التى ليس بها ماء ولا شجر ويؤديه: يعينه. وفاردا أى منفرداً. والأجذاع: سيقان النخل التى تجعل سقفا للخيمة.

(٢) قسم العرب الفلك «مدار الشمس» إلى اثنى عشر قسما؛ كل منها يسمى برجا، وهى منطقة يجتمع فيها عدد من كواكب ثابتة تضمها خطوط موهومة، وتعطى صورة معينة، لشئ من الأشياء التى ذكرت فى البيتين.

(٣) وفى سمط اللآلئ: البرق الذى يستطير فى السحاب من طرفها إلى طرفها لا شك فى مطره والذى فى أسافلها لا يكاد يصدق. قال رجل من العرب لابنه وقد كبر وكان فى داخل بيته تحت السماء: كيف تراها يا بنى؟ قال: أراها قد تبهرت (أضاءت) وأرى برقها أسافلها. قال: أخلفت يا بنى.

فى ذلك الشئ الكثير، روى صاحب الأغانى: أن أعرابياً مكفوف البصر خرج ومعه ابنة عم له ترعى غنما لها، فقال لها: أجد ريح النسيم قد دنا، فارفعى رأسك فانظرى. فقالت: كأنها بغال دهم[١] تجر جلالها. فقال: ارعى واحذرى. ثم مكث ساعة، وقال: إنى لأجد ريح النسيم قد دنا، فانظرى. قالت: هى كما قال الشاعر:

دان مسف، فويق الأرض هيدبه[٢] يكاد يدفعه من قام بالراح
كأنما بين أعلاه وأسفله ريط منشرة أو ضوء مصباح[٣]

فقال: انجى، لا أبالك، فما انقضى كلامه، حتى هطلت السماء.

وأما الرياح فقد عرفوا صفاتها وأنواعها، ومنها: الصبا والقبول والدبور والنعامى والشمال والجنوب والنكباء والسوافى والحواصب والصرصر والعاصف والسماء والمعصرات والأعاصير وغير ذلك.

ورد فى سيرة ابن هشام أن حيا من ثقيف «فزعوا للرمى بالنجوم، فجاءوا إلى رجل منهم يقال له: عمرو بن أمية؛ أحد بنى علاج، وكان أدهى العرب وأمكرها رأيا، فقالوا له: يا عمرو، ألم تر ما حدث فى السماء من القذف بهذه النجوم؟ قال: بلى، فانظروا إن كانت معالم النجوم التى يهتدى بها فى البر والبحر، وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس فى معايشهم هى التى يرمى بها فهو والله طئ الدنيا وهلاك هذا الخلق الذى فيها، وإن كانت نجوما غيرها وهى ثابتة على حالها فهذا لأمر أراد الله بهذاالخلق».

(١) الدهم: جمع أدهم وهو الأسود.
(٢) الهيدب: ذيل السحاب المتدلى.
(٣) الريطة: الملاءة.

فهذه الدقة العقلية لا يصح أن نجعلها أثراً لدراسة أو ثقافة، إنما هى أثر لنضج عقل العربى المتأثر بحياة البادية والصحراء، والذى تكثر تجاربهفيها.

ونحن مع ذلك لا نوافق الذين يرمون العقل العربى بالبلادة والضعف وانعدام النظرة الشاملة إلى العالم(١).

وليس عجيباً أن نرى هذه البراعة الفلكية عند الجاهليين، فقد دعاهم اعتمادهم على النجوم فى سيرهم برا وبحرا إلى معرفتها ومتابعتها، وساعدهم على ذلك صفاء جوهم، ومعرفة خلطائهم من الكلدانيين (الصائبة) الذين كانوا بالجزيرة وعرفوا السيارات السبع وعبدوا الكواكب والنجوم.

وإذا كانت الحاجة أم الاختراع والتجارب أساس المعرفة الواسعة فإن حاجة العربى وهو فى عرض الصحراء المتشابهة الأطراف والتى لا يميز بعضها عن بعض شئ أو علامة واضحة تعرفه الطريق، لا شك أن هذه الحاجة الشديدة هى التى جعلته يوجه طرفه نحو السماء ليرعى مسار النجوم ومواقعها وليعرف بأشكالها وأوضاعها الجهات الأصلية.

ومن هنا كان عرب الجاهلية – كما كان اليونان من قبل – أساتذة العالم الأول فى علم الفلك، نتيجة لنوازع البيئة وحاجات الحياة فى بيئات صعبة المسالك، متشابهة الأطراف.

ومن المعارف التى شاعت عند الجاهليين ما يسمى بالكهانة والعرافة

---

(١) انظر: فجر الإسلام لأحمد أمين: ص ٣٩ وما بعدها.

والكهانة والعرافة: قيل: هما شئ واحد، وهو الإخبار عن المغيبات؛ ماضية أو مستقبلة أو حالية، اعتمادا على القرائن، أو على النجوم، أو على الحصى، أو الجن فى زعمهم، أو بقياس المستقبل على الماضى وقيل: إن الكهانة هى الإخبار عن الماضى والمستقبل، والعرافة هى الإخبار عن الماضى فقط. وقيل: إن الكهانة خاصة بالمستقبل، والعرافة خاصة بالماضى. وكانت الكهانة فاشية فى العرب قبل الإسلام، فكانوا يفزعون إلى كهنتهم فى تعرف الحوادث والفصل فى الخصومات وعلاج المرضى ومعرفة المستقبل وتعبير الرؤى، كما كان الحال عند غيرهم من الأمم القديمة، كمصر وبابل وغيرهما، حتى جاءت الشريعة الإسلامية فأبطلتها ونهت عن الاعتماد عليها، لكثرة الكذب فيها، وحماية للعامة من أن يفتنوا بهم فيضلون عن الدين الحنيف.

ويظن بعضهم أن الكهانة نقلت إلى العرب على يد الصابئة، مع المعارف النجومية الآنفة، مستدلا بأن العرب يسمون الكاهن: جازيا وهو لفظ كلدانى، معناه: الناظر أو البصير، ويدل عندهم على الحكيم والنبى. فكان الكهنة ببلاد العرب من الصائبة أولاً، ثم من اليهود، وبعد ذلك ظهرت فى العرب، وادعاها منهم رجال ونساء كثيرون، واشتهر منهم عزى سلمة، وشق أنمار، وسطيح بن مازن، وخنافر ابن التوأم الحميرى، وسواد بن غارب الدوسى، وطريفة الكاهنة، وزبراء، وسلمى الهمدانية، وعفيراء الحميرية، وفاطمة بنت مر الخثعمية، ومن العرافين: رباح بن عجلة عراف اليمامة، والأبلق الأسدى عراف نجد.

وتذكر بعض المصادر الأدبية أن كهنة العرب كان لهم أتباع من الشياطين يسترقون السمع ويأتونهم بالأخبار فيلقونها لمن يتبعهم ويسألهم عن

خفيات الأمور حتى جاء الاسلام فمنعت الشياطين من استراق السمع فعند ذلك انقطعت الكهانة. وتحكى تلك المصادر أخباراً كثيرة عن الكهنة والدور الذى قاموا به فى الوقائع التى حدثت بين القبائل العربية.

ومن الجاهليين من حاول التعرف على الغيب بخط الرمل، بأن يجعلوا أشكالاً معينة وتقسيمات معروفة، ميزوها بأسمائها وأنواعها إلى سعود ونحوس. وهناك نوع من الكهانة وهو ضرب الحصى ببعضها عند السؤال، فيدعى الطارق بذلك معرفة الجواب.

ومما يروى فى ذلك أن مصادر بن مذعور القينى ند له ذود فخرج فى طلبها، فجال كثيراً حتى تعب، فهبط واديا فيه شجر، فأناخ راحلته فى ظل شجرة واضطجع فى برده، فإذا أربع جوار كأنهن اللآلئ يرعين بهما لهن، فلما خالطت عينه السنة، اقبلن حتى جلسن قريباً منه، وفى كف كل واحدة منهن حصيات تقلبهن، فخطت إحداهن ثم طرقت فقالت: (قلن يا بنات عراف فى صاحب الجمل النياف والبرد الكثاف والجرم الخفاف). ثم طرقت الثانية فقالت: (وضل اذواد علاكد كوم صلاخد، منهن ثلاث مقاحد وأربع جدائد، سنشف صمارد)، ثم طرقت الثالثة فقالت: (رعين الفرع ثم هبطن الكرع بين العقدات والجرع)، فقالت الرابعة: (ليهبط الغائط الأفيح، ثم ليظهر فى الملا الصحصح بين سدير وأملج، فهناك الذود رتاع بمنعرج الأجرع)، فقام إلى جمله فشد عليه وركب ولم يسألهن من هن، فلما أدبر، قالت إحداهن: (أبرح فتى، إن جد فى طلب، فماله غيرهن نشب، وسيئوب عن كثب)، ففزع قلبه لذلك وقال: كيف هذا خلفت بوادى عرجا عكامسا، فركب السمت الذى وصف له حتى انتهى إلى الموضع، فإذا ذوده رواتع، فضرب أعجازهن، حتى أشرف

على الوادى الذى فيه إبله، فإذا الرعاء تدعو بالويل فقال: ما شأنكم، قالوا: أغارت بهراء على إبلك فأسجفتها فأمسى ولا مال له إلا الذود(١).

ولجأ بعض الكهان إلى تحليل بعض الأمور والرد على استفتاءات السائلين عن طريق الأزلام، فإذا عزم العربى على فعل شئ، لجأ إلى سادن الصنم فأجال قداحه التى كتب على بعضها «افعل» وعلى بعضها «لا تفعل» وعلى بعضها «نعم» أو «لا» إلى غير ذلك، ويقول السادن عند ضرب القداح «اللهم إن كان خيراً له فأخرجه» فالقدح الذى يخرج يعمل به، وكانوا يلجأون إلى القداح أيضاً إذا شكوا فى نسب رجل، فيخرج قدح كتب عليه «صريح» أو «ملحق» فتتقرر حالة الإنسان بذلك القدح، ويروى أن امرأ القيس لجأ إلى سادن فى الخلصة، عندما عزم على الأخذ بثأر والده، فنهى عنه عزمه، فرفض التراجع وقال:

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا مثلى وكان شيخك المقبورا(٢)
لم تنه عن قتل العداة زورا

ويروى أن الكهان كانوا يأتون بالخوارق من الأعمال وكما ذكرت ادعى بعضهم أنه كان يعتمد على الجن فى استراق السمع، وقيل بل لهؤلاء الناس أرواح شفافة تستطيع بوسائل معينة أن تتلخص من الجسد لتسبح فى عالم الأفلاك العلوية، فتأتى بالمستور من الأمور لكشف سرقة أو كشف سر

(١) الذود: ما بين الثلاثة إلى العشرة، النياف: العالى، علاكد: صلاب، كوم: عظام الأسنمة، جدائد، التى انقطع لبنها، صلاخد: العظام الشداد، مقاصد: الغليظة السنام، سنشف: ضامرة، صمارد: قليلة اللبن، الفرع: أعلى الجبل، الكرع: ماء السماء، العقدات: ما تعقد من الرحل، الغائط: المطمئن من الأرض، الملا: الفضاء، الصحصح: الصحراء، سدير وأملج: موضعان، الأجرع: رمل لا ينبت، أبرج: أشد.
(٢) تاريخ الأدب للعصر الجاهلى – الجندى جـ ١ ص ١٢٧.

مخفى، ومما يروى من أعمالهم الغريبة، أن هنداً أم معاوية كانت فى الجاهلية فى بيت الفاكه بن المغيرة المخزومى، وكانت داره مثابة يغشاها الناس، فاطلع عليها زوجها يوماً وهى نائمة، وقد خرج من عندها رجل، فاتهمها به، واستلحقها بأبيها، وفشا خبرها، فخرج بها أبوها إلى بعض الكهان، يستخبره عن أمرها، وأخرج معها نسوة من قومها، وأقبل معهم الفاكه بن المغيرة فى رجال من قومه، فلما شارفوا ديار الكاهن، رأى عتبة من ابنته انكسارا وتغيرا، فقال لها أبوها «يا بنية، لا تكتمينى من أمرك شيئاً فإن كان ما بك لريبة نرجع ولا بأس عليك» فقالت هند - وكانت امرأة عاقلة نجيبه -: «لا والله يا أبت، ما ذاك لريبة ولا فاحشة ولكنكم تقدمون على بشر يخطئ ويصيب، وأخشى أن يسمنى بسمة تبقى على وصمة عار آخر الدهر»، قال: «سأبلوه لك» ثم خبأ خبيئا وأقبلوا حتى أتوا الكاهن فأخبرهم بخبيئتهم ثم استنظروه فى أمر النسوة، فجعل يتصفحهن واحدة واحدة، ثم أقبل على هند فقال: «انهضى غير رسماء ولا زانية، وتلدين ملكا اسمه معاوية».

ويحكى كذلك أن كسرى أرسل عبد المسيح بن بقيلة الغسانى إلى سطيح الذئبى، لما حصلت الآيات بمولد النبى صلى الله عليه وسلم فوافاه وقد أشرف على الموت، فلما كلمه، رفع رأسه إليه ثم قال: «عبد المسيح على جمل مشيح إلى سطيح، وقد أوفى على الضريح، بعثك ملك بنى ساسان لارتجاس الايوان، وخمود النيران، ورؤيا اطوبذان، رأى إبلا صعابا، تقود خيلا عرابا، قد اقتحمت فى الواد، وانتشرت فى البلاد، عبد المسيح: إذا ظهرت التلاوة، وغاض وادى السماوة وظهر صاحب الهراوة، فليست الشام لسطيح بشام، يملك منهم ملوك وملكات عدد سقوط الشرفات، وكل ما هو آت

آت، فرجع عبد المسيح إلى كسرى فأخبره فغمه ذلك، ثم تعزى فقال: «إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا يدور الزمان، قالوا: فهلكوا كلهم فى أربعين سنة والله أعلم.

وكان العرب يعتقدون بصحة نبوءة الكاهن وأن ما قاله لابد واقع، فيروى عن كاهن بنى أسد «عوف بن ربيعة» أنه قال بعد أن أطلق حجر سراح قومه: «يا عبادى، قالوا: لبيك ربنا، قال: من الملك الأصهب الغلاب غير المغلب فى الإبل كأنها الربرب لا يعلق رأسه الصخب، هذا دمه ينشعب، وهو غدا أول من يسلب». قالوا: من هو ربنا؟ قال: لولا أن تجيش نفس جاشية، أنبأتكم أنه حجر ضاحية، فركبت بنو أسد كل صعب وذلول فما أشرق لهم الضحى، حتى انتهوا إلى حجر، فوجدوه نائماً، فذبحوه، وشدوا على هجائنه فاستاقوها(١).

وروى أن كاهنا قال لصريم بن معشر التغلبى «إنك تموت بثنية يقال لها «الاهه» وإنه خرج مع ركب، فضلوا الطريق ليلا، فلما أصبحوا وسألوا عن المكان الذى هم فيه، قيل لهم هذه «الاهه» فنزل أصحابه وأبى أن ينزل، وخلى ناقته ترعى، فعلقت بمشفرها أفعى، فأمالت الناقة رأسها، فنهشته الأفعى فألقى نفسه وأنشأ يقول:

لعمرى ما يدرى امرؤ كيف يتقى		إذا هو لم يجعل له الله واقيا
كفى حزنا ان يرحل الركب غاديا		وأترك فى أعلى الاهة ثاويا(٢)

ولكن على الرغم من إيمان العرب بالكهان ومقدرتهم على معرفة الأمور الغيبية، فإن بعضهم بحكمتهم وامعان تفكيرهم، استطاعوا أن يكشفوا

---

(١) الشعر والشعراء ص ١٧.
(٢) المرجع السابق ص ٩٦.

كذب المنجمين وزيف الكهان ومنهم أبو ذؤيب الذى قال:

يقولون لى لو كان بالرجل لم يمت نشيبة والطراق يكذب قيلها[١]

ومن هؤلاء لبيد بن ربيعة الذى قال:

لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

ولقد حرم الإسلام الكهانة، وبين أن هناك بعض الأمور الغيبية لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، وأن الضرر والنفع لا يتأتى إلا بقدرة الخالق سبحانه، إلا أن الإسلام أقر بعض النبوءات التى يشاهدها الإنسان فى نومه، كما أنه أقر فراسة الصالحين، وذلك كرم ربانى يهبه لمن يشاء من عباده الصالحين.

وتوسعوا فى الإيمان بسلطان الأرواح والجن توسعاً جعلهم يعتقدون أن وراء كل حركة من حركات البشر روحاً خيرة أو شريرة.

وكان لهذه المعتقدات الزائفة صوت هى الأخرى يسمع فى الشعر الجاهلى، فمثلاً لا حصراً ترى من صور الزندقة قول أحد الشعراء:

يحدثنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام؟!

أما اليهود والنصارى من العرب فكانوا قليلين، ومع أنهم كانوا أصحاب دين سماوى فإنهم لم يكونوا على بصيرة بحقائق الدين، ولا على التزام بشريعتهم حتى إن القرآن الكريم وصف اليهود بصفات عديدة معلومة من أبرزها قتلهم لأنبيائهم وقولهم إن الله فقير ونحن أغنياء، وشبههم القرآن فى عدم عملهم بالتوراة التى يحفظونها بالحمار يحمل أسفاراً أى كتبا تتعبه ولا

(١) الطراق: الذين يضربون بالحصى.

يعرف الإفادة بها.

وقد انتشرت اليهودية فى اليمن ووادى القرى وخيبر وتيماء ويثرب والذى أدخل اليهودية إلى اليمن تبع الأصغر، ومن اليهود الذين نزلوا المدينة بنو قريظة وبنو النضير، وأشهر من دان باليهودية من قبائل العرب: بنو نمير، وبنو كنانة، وبنو الحارث بن كعب، ولعلها سرت إليهم من مجاورة اليهود لهم فى تيماء ويثرب وخيبر. وكان لليهود مستعمرات فى يثرب وخيبر وتيماء وفدك ووادى القرى. واشتهروا بالزراعة والصناعة، وكان لهم أثر كبير فى اللغة العربية، فأدخلوا فيها كلمات كثيرة، ومصطلحات دينية لم يعرفها العرب من قبل، مثل جهنم وإبليس والشيطان وغيرها، وكانت اليهودية متأثرة بالثقافة اليونانية تأثراً كبيراً عندما دخلت جزيرة العرب.

وقد استطاع اليهود أن يعيشوا فى بلاد العرب بوسائلهم التقليدية من المكر والخداع والكيد، ونجحوا إلى حد كبير فى الاستئثار بخيرات البلاد، ولكن دينهم نفسه لم يجد له طريقاً إلى قلوب العرب، ولعل السبب فى ذلك أن كثيراً من أحكام اليهودية لا تتناسب مع أخلاق العرب، فاليهودية مثلاً لا تبيح الانتفاع بغنائم الأعداء، بل تقول بحرقها، والعربى إنما يقاتل للنهب والسلب غالباً، والعربى إلى جانب ذلك يميل إلى الحرية وعدم التقيد «بالسبت» أو بشئ آخر مما ورد فى التوراة.

وقد استطاع يهود اليمن فى أوائل العصر الجاهلى أو بعبارة أخرى فى أوائل القرن السادس الميلادى أن يؤثروا فى ملك من ملوك التبابعة هو ذونواس. وأن يدخلوه فى دينهم، وقد دفعوه دفعاً إلى التنكيل بنصارى نجران

وتحريقهم، وفى ذلك نزلت الآيات الكريمة: (قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد). (١)

وربما كان السبب الحقيقى فى استجابته لليهود أنه كان يخشى من تغلغل النصرانية فى بلاده وأن يفتح ذلك الأبواب لنصارى الحبشة، فيستولوا عليها بدون مقاومة. على أن الأحباش سرعان ما انتقموا لإخوانهم، فأزالوا دولة ذى نواس سنة ٥٢٥ وظلوا نحو خمسين عاماً، حتى أجلاهم عنها أهلها بمساعدة الفرس.

ويظهر أن هذه الفترة التى قضاها الأحباش النصارى هناك كانت سبباً فى تفرق اليهود وخروج كثيرين منهم من اليمن وتشتتهم فى البلاد. ولكن ظلت بقايا هناك، دخل كثيرون منها فى الإسلام من مثل كعب الأحبار ووهب ابن منبه، ولهما فى الإسرائيليات التى شاعت بين المسلمين ومؤرخيهم أثر كبير.

وأوقع يهود الحجاز بين قبيلتى الأوس والخزرج فى يثرب، فاشتبكتا فى حروب دامية حتى جمعهما الرسول عليه السلام على الإسلام، وقد ناهض اليهود الرسول، فكانوا يثيرون معه مناقشات ومجادلات صورها القرآن الكريم، وذهبوا يحاولون الوقيعة بين المسلمين، ويؤلبون عليهم قريشاً وغير قريش، مما اضطر الرسول عليه السلام إلى إجلائهم عن المدينة. وفى السيرة النبوية لابن هشام وطبقات ابن سعد ما يدل على أنهم كانوا يتدارسون دينهم

(١) سورة البروج: الآيات ٤-٩

فى دار ندوة لهم تسمى المدراس وأنهم كانوا يقرأون التوراة والمشنة والزبور (مزامير داود) بلغتهم القديمة العبرية، ولكنهم اتخذوا العربية لغتهم اليومية، ونظم فيها بعضهم شعراً عربياً. ومن شعراء اليهود فى الحجاز: كعب بن الأشرف والسموأل بن عادياء.

وقد دخلت النصرانية بلاد العرب زمن الحواريين، فنقل أن القديس لوقا أول من دعا إليها فى بلاد اليمن أثناء مسيره إلى الهند، وبولس دعا إليها فى الشام. وفى تاريخ العصور الوسطى أن عرب غسان تنصروا فى أيام القيصر، وقال ابن خلدون: كان أهل نجران (وهم بنو الحرث بن كعب بن مذحج) من بين العرب يدينون بالنصرانية.

وأشهر من تدين بالنصرانية من العرب، قضاعة كأنهم تلقوها عن الروم، فقد كانوا يكثرون من التردد إلى بلادهم للتجارة، والغساسنة بالشام لمجاورتهم نصارى الروم، وكثير من تنوخ وتغلب وطيئ وحمير، وشاعت النصرانية فى قبائل شتى بالحيرة، يقال لهم «العباد» ومنهم عدى بن زيد العبادى الشاعر المعروف.

وكان أهم موطن للنصرانية بين العرب (نجران)، وكان بها بيعة بناها عبد المدان بن الديان الحارثى على نسق بناء الكعبة، وعظموها مضاهاة لها، وسموها كعبة نجران.

وقد عرفت النصرانية فى بنى أسد بن عبد العزى من قريش، ومنهم عثمان بن الحويرث، وورقة بن نوفل على رأى، وكان ورقة قد استحكم فى النصرانية حتى علم من أهل الكتاب كثيرا.

وفى يثرب كان من المناوئين للنبى صلى الله عليه وسلم عند شخوصه إليها شريف مطاع اسمه أبو عامر عبد عمرو بن صيفى، كان قد ترهب ولبس المسوح وسمى «الراهب» وكان بمكة نصرانى اسمه موهب ضرب عليه النبى ديناراً كل سنة.

وكان بأيلة نصارى، ضرب عليهم النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة دينار كل سنة، وأن يضيفوا من مر بهم من المسلمين ثلاثاً ولا يغشوا مسلماً.

وكان الرقيق الحبشى الذى تزخر به مكة نصرانياً، ويظن أنه كان بها جالية من الروم النصارى، ويقال إنه كان بها عبدان نصرانيان أصلهما من عين التمر وإنه كان بها جوار روميات، ويقال إن شماسا زار مكة فى الجاهلية ، وكان يعيش فى مر الظهران راهب مسيحى. ويزعم اليعقوبى أن قوماً تنصروا من قريش قبيل الإسلام منهم ورقة بن نوفل وعتبة بن أبى لهب وعثمان بن الحويرث الأسدى. والمظنون أنه كان فى المدينة بعض النصارى، وإليهم يشير حسان فى رثائه للرسول صلوات الله عليه - إن صح أنه له - إذ يقول:

فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى فى الضريح الملحد

وكان القسس والرهبان يردون أسواق العرب، ويعظون ويبشرون، ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار، وكان شأن النصرانية كشأن اليهودية تحمل فى ثناياها شيئاً من الثقافة اليونانية.

وينبغى التنبيه على أن نصرانية من تنصر من الجاهليين كانت نصرانية سطحية امتزجت بشيئ من معتقدات العرب الوثنية، ولم يقوموا

بتعاليم المسيحية الحقة قياما دقيقاً.

صحيح أنهم عرفوا الكنائس والبيع والرهبان والأساقفة والصوامع، وصحيح أن القسس والرهبان كانوا يردون أسواق العرب ويعظون ويبشرون ويذكرون الناس بيوم البعث والحساب والجنة والنار. ولكنهم - كما يقول الدكتور شوقى ضيف -[١] «ظلوا لا يتعمقون فى هذا الدين الجديد، وظلوا يخلطونه بغير قليل من وثنيتهم، وربما كان مما يوضح ذلك خير توضيح قول عدى بن زيد العبادى[٢]:

سعى الأعداء لا يألون شرا على ورب مكة والصليب

فهو يجمع فى قسمه بين رب مكة الوثنية ورب الصليب، وكذلك كان أكثر العرب من النصارى، فهم مسيحيون وثنيون فى الوقت نفسه. ومن يقرأ شعره لا يجد فيه فكرة التثليث المعروفة فى النصرانية.

والحق أن نصارى العرب فى الجاهلية إنما عرفوا ظاهراً من دينهم، وقلما عرفوا حدوده، وقد سقطت إلى أشعارهم وأشعار الوثنيين أنفسهم كلمات ومصطلحات كثيرة منه ومن شخوصه وطقوسه، فمنذ امرئ القيس وقوله[٣]:

يضيئ سناه أو مصابيح راهب أهان السليط فى الذبال المفتل

والشعراء يرددون ذكر الرهبان ومحارب كنائسهم، يقول الأعشى[٤]:

كدمية صور محرابها بمذهب ذى مرمر مائر

(١) العصر الجاهلى: ص
(٢) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١١١/٢.
(٣) ديوان امرئ القيس (طبعة دار المعارف) ص ٢٤. والسليط: الزيت.
(٤) الديوان (طبعة جاير) القصيدة رقم ١٨.

وطالما تحدثوا عن نواقيسهم وقرعها فى أواخر الليل، يقول المرقش الأكبر فى بعض شعره(١):

وتسمع تزقاء من البوم حولنا كما ضربت بعد الهدو النواقس(٢)

وعرض النابغة الذبيانى فى مديحه للغساسنة لتدينهم، ولبعض أعيادهم كعيد الشعانين ويسميه السباسب إذ يقول فيهم(٣):

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب

وذكر أوس بن حجر عيد الفصح الذى كانوا يحتفلون به فيوقدون المشاعل ويضيئون الكنائس بالقناديل والمصابيح، ويقول(٤):

عليه كمصباح العزيز يَشُبُّه لفصح ويحشوه الذبال المفتلا

وجرى على لسانهم كثير من أسماء الأنبياء، من مثل داود، وكان يشتهر عندهم بنسجه للدروع المتينة القوية، ومن ثم يقول سلامة بن جندل فى وصف بعض الدروع(٥):

مداخلة من نسج داود شكها كحب الجنا من أبلم متفلق(٦)

وقد يتحدثون عن ملكه فى صدر حديثهم عن الملوك البائدين وكيف يعتدى الدهر على الناس فلا يبقى ولا يذر.

ويكثر فى شعر الأعشى وأمية بن أبى الصلت وعدى بن زيد القصص

(١) المفضليات (طبعة دار المعارف) ص ٢٢٥.
(٢) التزقاء: الصياح. والهدو: أوائل الليل.
(٣) مختار الشعر الجاهلى للسقا ص ١٦٢.
(٤) ديواس أوس: ص ٨٤.
(٥) الأصمعيات: ص ١٥٠ ط دار المعارف بمصر.
(٦) مداخلة: محكمة النسج، شكها: أحكمها، والأبلم: بقلة لها قرون بها حب يابس.

عن الأنبياء وسيرهم قصصاً نظن ظناً أنه موضوع. وهو إن قبل من عدى النصرانى فإنه لا يقبل من الأعشى، وكان وثنياً»[1].

وواضح من النماذج السالفة أن وجود النصرانية فى شبه الجزيرة العربية قد أثر فى شعرائها آثاراً مختلفة لا فى الشعراء النصارى فحسب، وإنما فى بعض الشعراء الوثنيين أيضا. ثم كان من آثار وجودها فى الجزيرة ظهور جماعات المتحنفين، وتسرب فكرة البعث والحساب إلى نفر من الجاهليين.

فهؤلاء الحنفاء قد تأثروا بالنصرانية وبالديانات السماوية القديمة التى كان لها بعض الآثار فى مكة والمدينة والطائف، فنبذوا عبادة الأصنام وتخلصوا من عادات الجاهلية؛ واعتقدوا فى البعث والحساب.

ومن هؤلاء مثلا: ورقة بن نوفل، وكان كما ورد فى كتاب بدء الوحى فى صحيح البخارى «امرأ قد تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب»، ومنهم كذلك زيد بن عمرو بن نفيل، وأمية بن أبى الصلت وكان قد نظر فى الكتب وقرأها وهو أول من قال باسمك اللهم. وأبو ذر الغفارى وصرمة بن أبى أنس من بنى النجار وخالد بن سنان العبسى، وحنظلة بن صفوان، وزيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة الإيادى، وعامر بن الظرب العدوانى، وزهير بن أبى سلمى، وعبيد بن الأبرص، ومنهم كذلك النابغة الجعدى الذى يقال عنه إنه أنكر فى الجاهلية الخمر، وهجر الأوثان، والأزلام، وقال فى الجاهلية:

(١) العصر الجاهلى لشوقى ضيف: ص ١٠١ - ١٠٢.

﴿ ٧٤٥ ﴾

الحمـــد للـــه لا شـــريك لـــه مـــن لـــم يقلهـــا فنفســـه ظلمـــا[١]

يقول ابن إسحاق:

«اجتمعت قريش يوماً فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويديرون (يطوفون) به، وكان ذلك عيداً لهم فى كل سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نجياً، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض قالوا أجل، وهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وعبيد الله بن جحش.... وعثمان بن الحويرث... وزيد بن عمرو بن نفيل... فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما قومكم على شئ، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً، فإنكم والله ما أنتم على شئ. فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم، فأما ورقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية.. وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم.. وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر.. وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان.. وقال أعبد رب إبراهيم»[٢] ومعروف أنه أسلم وكان من الصحابة الأولين المقدمين ويمكن أن ندخل فى جماعة المتحنفين الذين سبق ذكر بعضهم كثيرين ممن حرموا على أنفسهم فى الجاهلية الخمر والسكر والأزلام مثل عبد المطلب بن هاشم وقيس

(١) انظر: أديان العرب فى الجاهلية لمحمد نعمان الجارم: ص ١٩٣ - القاهرة ١٩٢٣.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٣٧/١

بن عاصم التميمى وحنظلة الراهب ابن أبى عامر غسيل الملائكة. ولا نرتاب فى أن صنيع هؤلاء إنما كان شكاً فى حياتهم الدينية، وكل ذلك يؤكد أن الوثنية الجاهلية كانت على وشك الانحلال، فما انبلجت أضواء الإسلام، حتى اعتنقه العرب ودخلوا فيه أفواجاً.

والرائع حقاً أن هؤلاء الحنفاء الذين مالوا عن وثنية آبائهم بفطرتهم السليمة، وبتأثير ما قرأوه فى كتب النصارى قد أحيوا بصنيعهم هذا ما ضاع من شريعة إبراهيم عليه السلام أبى الحنيفية البيضاء.

وقد كانت هذه النزعة الإصلاحية التى سيطرت على عقول بعض الحكماء والمفكرين العرب تنبيها للأذهان، وإرهاصا لظهور النبى الجديد، وتهيئة للعقول لتستعد لقبول التعاليم الجديدة التى سيتقدم بها النبى الكريم.

بل كانت هذه النزعة المتحنفة دليلاً على أن العرب فى نهاية العصر الجاهلى قد سئموا هذه الديانات الخرافية حتى لنجد من الشعراء من يسخر من هذه الآلهة أو يثور عليها. وفى ذلك يقول الشاعر من بنى ملكان من كنانة وكان لهم صنم يقال له سعد:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا
فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد الا صخرة بتنوفة
من الأرض لا يدعو لغى ولا رشد

ويقول آخر فى صنم كان اسمه ذا الخلصة وكان صنم بجيلة وباهلة

التنوفة: الأرض الواسعة والغلاة لا ماء فيها ولا أنيس.

وأزد وغيرها:

لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا
مثلى وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

ويقولون إن سبب قوله هذه الأبيات أنه قتل أبوه فأراد الطلب بثأره، فأتى ذا الخلصة فاستقسم عنده الأزلام، فخرج السهم ينهاه عن ذلك، فقال تلك الأبيات التى ينحلها بعض الرواة امرأ القيس.

كذلك من قبيل السخرية بهذه الآلهة ما رواه ابن قتيبة الدينورى فى كتابه المعارف[1] حيث يقول:

وكان بنو حنيفة اتخذوا فى الجاهلية إلهاً من حيس (تمر بالسمن والدقيق) فعبدوه دهراً طويلاً، ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه، فقال رجل من بنى تميم ساخراً:

أكلت ربها حنفية من جوع قديم بها ومن إعواز

وقال آخر:

أكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعه
لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعه

وينبغى أن نعلم أن معظم هؤلاء الحنفاء عاشوا قبل الإسلام وأنهم فى جملتهم يشكلون ظاهرة اجتماعية ودينية جديدة من حيث التحرر من سلطان التعدد القبلى والتشتت الدينى المرتبط به. وقد ربط بعض الباحثين بين ظهور

(١) المعارف لابن قتيبة: ص ٢٦٦ دار إحياء التراث العربى بيروت ١٩٧٠م.

هؤلاء الحنفاء وبين حدوث تطورات سياسية جديدة فى الجزيرة العربية منها: تفجر الصراع السياسى الذى اتخذ – بعد حملة أبرهة الحبشية الفاشلة على مكة – مضموناً تاريخياً حدد وجهته كصراع بين قوى داخلية من أهل البلاد وقوى خارجية كالحبش والفرس. ومنها حادث ذى قار الشهير سنة ٦٠٩م الذى كان تعبيراً عن الرغبة فى نمط جديد من العلاقات الاجتماعية بين القبائل تسمو على التعدد وتتطلع إلى ما يشبه الوحدة القومية.

وفى هذه الظروف السياسية نشأت ظاهرة الحنيفية تدعو إلى اقتلاع جذور الوثنية بوصفها مرتبطة بقبلية تعددية تقسم جماعة العرب إلى وحدات متصارعة، «فليس من معنى لتعددية الآلهة فى الوثنية إلا أنها الصورة القائمة فى وعى الإنسان القديم عن تعذدية الأطر البدوية»(١).

(١) انظر: النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية للدكتور حسين مروة: ص ٣١٥ بيروت ١٩٧٨م.